وذكريات !

"قرويون وذكريات... قبل الافول والزوال"

ندى امين الاعور

المحتويات

تقديم الكتاب وأقسامه

الفصل (1): ذكريات طفولة بعد السبعين

الفصل (2): الأعمال والمواسم

تربية دود القَز
جوّ العمل في "كِرْخانة" الحرير
مواسِم الغِلال والبيادر
موسم الكروم
التبصير والتنجيم
إثنان وسبعون قبيلة للجن
المياه تحيي الزرع والضرع
كار الخياطة وفن التفصيل

الفصل (3): الحب والزواج في حياة القرية

الحرّية في البرّية
قصّة حب انتهت بالاقتران
حكاية "غانمة" في كرخانة الحرير
زواج الخَطْيفة من تراث القرية

الفصل (4): القرية وتقاليدها المتوارثة

مشيئة الأقدار تحدد المسار
عالم الغيب: غرائب وعجائب
في مجاهل السياسة القرويّة
نبوءات آخر الأوقات

تقديم الكتاب واقسامه

"قرويّون ... وذكريات !" محاولة لضمّ جزء من تراث. وقد جاء نتيجة لعدد كبير من مقابلات وأحاديث أجريتها مع نساء ورجال مسنّين يقطنون قرى تقع في المتنين الأعلى والشمالي في جبل لبنان خلال عامي 1992 و1993. الهدف الأساسي منه، تعريف القرّاء على نمط العيش الرّتيب وأشكال الحياة قديما في قرية جبليّة لبنانية. توارثها جيل ولد مع مطلع القرن العشرين ليورثها لنا اليوم، بعد أن فعل الزمن فعله بها وشملها التطور شكلا ومضمونا.

هذا الجيل من القرويين تراكمت أيام العمر عليه، واختفى تدريجيا بفعل السن. عاصر أبناؤه الحربين العالميتين الأولى والثانية وشاهدوا تلك التغيرات الجذرية التي طرأت على عالم قراهم الصغير لتمحو آثار الماضي وتجعل الحياة الحديثة في " الضيعة " اللبنانية بعيدة كل البعد عما هو مخزون في الذاكرة. ففي أقل من مائة عام انتقل المجتمع القروي من كونه مجتمعا زراعيا صرفا إلى مجتمع التجارة والخدمات، بالإضافة إلى استمرار التعاطي بالزراعة ولكن بشكل متواضع خجول. فكان من الطبيعي أن يزول بعض من العادات والتقاليد والأفكار والقيم الاجتماعية والأعراف المتوارثة. لذا، فإن إلقاء الضوء على حياة جيل يطويه الموت وعلى همومه عملية شيقة. وحفظ ثقافته الشعبية بين دفتي كتاب هو تأريخا اجتماعي مفيد. فالأحداث والقصص وأشعار الزجل و "مطاليع المعنى"، والأهازيج الجبلية القديمة، وأشعار "الندب" أو "الحداء"، في صفحاتنا التالية تسجل تراثا لا يزال بعضه اليسير متوارثا ليميز الحياة القروية في مختلف جوانبها...

القرية في جبل لبنان إذا، غير الزمان شكلها ومعالمها. بعض العجائز يرضخن لهذا التغير ويسلمن به على مضض. لكن البعض الآخر رافض مشمئز يندب قديمه بحسرة لاعنا كل جديد وحديث. بعضهم يركب السيارة "بلا حول ولا قوة إلا بالله" ، والبعض الآخر يرتاح للاستمرار في ركوب الدابة. فرائحة الوقود تسبب له الدوخة في الرأس والجيشان في النفس! بعضهم يؤمن بالطب الحديث فيزور عيادة الطبيب مجبرا أو مرغما عند المرض. وبعضهم الآخر يفضل التداوي بالأعشاب، كما يداوم على استخدام "الرقوة" ولبس "الحجاب" ليتقي شر "الكتيبة" و "العين الفارغة الحاسدة"... والكل متعجب مشدوه لتعدد تسميات الأمراض وأشكالها، بسيطة كانت أم خبيثة. فهي لم تغزو قراهم قبل أن تغزوها الحضارة. فشملت "الموضة" أساليب

العلاج وطرق الوقاية أيضا... "هيهات" يجمع العجائز على التعبير، فأيام زمانهم كانت ترفل بالصحة الجيدة وراحة البال. ذلك عندما لم يكن في القرية كلها صيدلية واحدة للحصول على الدواء! ففي أيام الطفولة لم يكن أحدهم بحاجة إلى تناول حبة أو جرعة دواء! أما اليوم، فالسن أقعد بعضهم عن العمل فرقد رغما عن إرادته. بينما لا يزال البعض الآخر يجاهد مكافحا من أجل عيشه. ذلك برغم العمر وتجاعيد الوجه وترهل الجسد. فيغدو ويتمسى ... إما إلى "الحقلة" يزرع ويجني، أو إلى قمة جبل يرعى القطيع، أو إلى غير ذلك من الأعمال الخفيفة... فالخمول والكسل، أيها القراء الأعزاء: "قلة دين"!.

لكنهم جميعا، يروون بسعادة لا تعادلها سعادة، حكايات وأخبار زمانهم الذي ولّى... "أيام الخير والبركة"... عندما كان المثل سائرا وسائدا في القرية ليقول: "فلاح مكفي... سلطان مخفي!"... "في ذلك الحين يا ابنتي" يقولون، "كانت الدنيا بألف خير... أكل كثير وشرب كثير... صحة في الأجسام وقناعة في النفوس... الفة ومحبة تجمع الأقارب. كتل متراصة... شرف في التعامل مع الغريب ومع القريب... العيش الهانئ لم يعكره فقر ولا تعب... " ذكرياتهم المتلاحقة لا تنغصها سوى ذكريات المحنة التي ألمت بهم خلال "حرب الأربع تعش".

ففي عام 1914 كانت للمجاعة محطة هامة في حياتهم. ذلك يوم غزا الجراد قرى الجبل خلال الحرب العالمية الكبرى، "فأكل الأخضر واليابس". واجبر القرويين على النزوح الجماعي طلبا للقوت وللعمل، مآسي المجاعة الرهيبة حلت بالجماعات فأربكت حياتهم وتركت بصماتها في النفوس...

في كتابنا هذا سيجد القارئ نفسه أمام شريط من الصور والأخبار والذكريات والشخصيات... ينقله إلى مجتمع الجدات والأجداد. حيث يتعرف إلي أماكن وقضايا ومسائل، شاهدها وعاشرها وعاشها كل من روى لي ذكريات يحملها في وجدانه ويحلم بها فتضج في رأسه. نبع غزير من الأحاديث والأشعار... يقود خطواتنا فنرجع إلى أجواء اجتماعية كانت تتفاعل حول عين الماء، في الساحة، وعلى البيدر، في معصرة الكرم، وفي كرخانة الحرير، بجانب قناة الري، في بيوت سطوحها من تراب ...، أو حول مغاور مرصودة تحوي كنوزا لا تقدر بأثمان يرصدها جان وعفاريت!

يدلّنا مضمون الكتاب على أسباب طموح القروي قديما، وسبله في الوصول إلى تحقيق أهدافه... إلى أسباب الأفراح والأتراح وطرقه للتعبير عنها... أسباب الخلاف والعداوة وأساليب حل النزاع ... أسباب الحب والبغض... طرق السلوى... أساليب العمل وأنواعه وتعدد المواسم...

تربية الأطفال وألعابهم... مدرسة القرية وعصا المعلم... النّغصة كما البحبوحة التي سببها المهجر الذي ابتلع أرهاطا من الشبان والعائلات التي رحلت فاستوطنت إفريقيا والبرازيل أو الأمريكتين...

نظرة الأجداد والجدات إلى مجتمع أبنائهم وأحفادهم جلية واضحة في حين... ومبطنة خلف السطور في معظم الأحيان. أحاديثهم تعرض صورة للتطور الاجتماعي- المعيشي في مطلق قرية جبلية منذ العام 1900 إلى يومنا هذا. فكل من يحاول النظر والتمعن والمقارنة بين الذي كان في الماضي والموجود اليوم لا بد أن يجد مادة دسمة للدراسة والتحليل. فالذي تغير على زمان حياتهم كثير ومدهش "لا يصدقه عقل!".

لذا، فإنهم يرجعون أسبابه إلى إرادة الله ... فهو وحده قادر على اجتراح المعجزات! فأنه إن غضب على قوم ضربهم. وشحح ينابيعهم. وأيبس مساكب زرعهم. وسلط بعضهم على بعض! إما إذا غفر وتسامح، وغض الطرف... أعطى بدون أي حساب. حيث تغزر المياه، تكثر غلال الحقول، وتزدهر مواسمها... ذلك كي تحيى الجماعات في هدوء قد يعكره طارئ ما بين الفينة والفينة...

يقع الكتاب في أربعة فصول، كل منها يخوض في غمار جانب من جوانب الحياة القروية القديمة. فيعرضها بتفاصيلها الدقيقة على شكل قصص أو أمثال أو كلام شعري مقفى ألفه ونظمه القرويون أنفسهم أو حفظوه عن ظهر قلب وأنشدوه ليعبر عن مكنونات صدورهم.

الفصل الأول، يستعرض ذكريات الطفولة بمجملها. ويتحدث عن شكل القرية وجغرافيتها السكانية المتوارثة. ثم يتطرق إلى مشاكل تربية الأطفال، والأسماء التي كانت تطلق عليهم، والأمثال المتعلقة "بخلقة الصبي والبنت"، والأغاني التي كانت تنشدها الأم لطفلها كي ينام، وألعاب الأولاد، وأعمالهم، وحكايا سهراتهم، ومدارسهم. ثم يختتم بالكلام عن المجاعة التي حلت بالجميع... فخربت البيوت خرابا تاما.

الفصل الثاني، يستعرض الأعمال ويعدد المواسم في القرية القديمة. فنلاحظ طريقة تقسيم العمل ضمن عائلة الفلاح. ونكتشف المطبخ القروي ونعدد أطباقه الرئيسية ونرى كيفية حفظ الغلال مؤونة لأيام الشتاء الباردة القاسية. ولكل عمل أو موسم جوانبه الإنسانية وخصائصه التي تظهر واضحة لتطبعه بطابع معين وتعطيه الأهمية المطلوبة.

الفصل الثالث، يستعرض حكايا الحب ناجحة كانت أم فاشلة. ويقدم نماذج من غناء الغزل وزغاريد الأعراس. ثم يتطرق إلى أمور الزواج ومراسمه وأساليبه، فيتحدث عن "الخطيفة" ورواياتها التي كانت تشكل احداثا هامة في مجريات الأمور.

أما الفصل الرابع، فيستعرض الحياة القروية القديمة العامة في مختلف وجوهها. ويروي حكايا العراك اليومي، وطرق التسلية واللهو، وأساليب التعبير عن الحزن في حال الوفاة، وطموح القروي وتطلعاته واتصالاته حين يحاول نبش كنز مرصود أو أكثر. كما يورد أخبارا تبين أهمية تعيين ناطور الكروم أو انتقاء المختار في القرية. فالسياسة الداخلية، اقتصرت حينها على أحداث مشابهة فاستدعت التكتل والتحالف والمواجهة.

أما الختام فيأتي مع وقفة عند توقعات الأقدمين عن نهاية الدنيا "وآخر الأوقات"! فالعلامات الفارقة بدأت بالظهور تماما كما سمعها العجائز في أيام الطفولة والشباب على السنة آبائهم وأجدادهم الذين كانوا قد توارثوها أيضا ممن سبقهم من أجيال، والويل ثم الويل لكل كافر بنبوات الأولياء والأطهار والصالحين....

الفصل الاول: ذكريات طفولة بعد السبعين

في أوائل القرن العشرين، كان المجتمع القروي في جبل لبنان مجتمعا زراعيا بسيطا. تميزت حياة أبنائه برتابة في العيش وقواعد عامة حددت السلوك. تراث من الأعراف والقوانين الاجتماعية حدد شكل القرية وهندسة بنائها. فكانت للمباني جغرافيا إنسانية عامة. "الحارة التحتا" تسكنها عائلة معينة. و"الحارة الفوقا" تقطنها عائلة ثانية. وإذا كانت الضيعة كبيرة، فسكن "حارة النصف" لعائلة ثالثة. كل حارة تألفت من عدة أحياء. وكل حي من الأحياء اشتمل على عدة بيوت. أهلها تجمع بينهم أواصر القربى فيؤلفون "جبا" أو فخذا ضمن العائلة التي تشغل بيوت الحارة. ويتدخل بعضهم مع بعض في كل كبيرة وصغيرة. لكل جب كبير يتزعم أهل الحي. يكون ولاؤه وولاء جماعته لكبير آخر يتزعم الحارة كلها. ليتبع وأفراد عائلته زعيما آخر يشمل نفوذه عدة قرى. وهكذا دواليك. ولطالما اختلف أجباب العائلة الواحدة مما استوجب تدخل زعيم المنطقة لحل النزاع... إما عندما تختلف العائلات في القرية، فالمسألة تكبر عادة لتدب العداوة وتستمر لسنوات طويلة وتتوارثها الأجيال واحدا تلو الآخر...

نادرا ما كانت العائلات تختلط في السكن إذا. والجبل كله فوق وتحت. ليس فيه سهل مستو تعمر القرى فوقه. على إن هذه الخريطة السكنية، كان فيها أمن جماعي نسبي للسكان. اللهم إلا في حالات الخلاف على الماء أو على حدود الأرض المملوكة في خراج القرية. أو على اختطاف شاب لصبية يحبها، رفض أهلها تزويجها له. أو على سياسة الضيعة، أو على أي شأن آخر...

أغلبية البيوت كانت قديمة متوارثة. أرضها من طين وسطوحها من تراب. كل بيت عبارة عن مستطيل مقسوم إلى قسمين. يفصل بينهما حائطا مصنوعا من التراب المجبول مع التبن الجاف. القسم الخلفي زريبة للماشية، والقسم الأمأمّي تحتشد فيه العائلة التي تشغله. إما العائلات الأوفر حظا فكانت بيوتها القليلة العدد مؤلفة من أقسام ثلاثة: يستخدم القسم الثاني منها لتربية دود الحرير، والقسم الثالث لسكن العائلة... وفي كل قرية بيت أو اثنان أو ثلاثة يضاف إلى كل واحد منها علية مخصصة لاستقبال الضيوف. وأصحاب هذا النوع من البيوت كانوا يعتبرون وجوه الضيعة وأكابر القوم عندهم تجري الاستقبالات العامة متى حل في القرية زوار، أو إذا جاءها ابن حكومة طالبا استيفاء الضرائب. ومنهم ينتقى الزعماء في كل حارة... إما البيوت الحجرية ذات أسطح القرميد فقد كان وجودها نادرا. إذ ارتبط قيامها بعودة المهاجرين من أبناء القرية، أو إرسالهم المال اللازم للعمار...

إن أي منزل لم يكن يحتوي على حمام أو مرحاض في داخله، ولا على مطبخ. ولا ماء في البيوت. وطبعا لا كهرباء ولا أية وسيلة ترفيهية. لذا، كان الأهالي يتلطون وراء الحيطان و "الشوارات" وفي "اللزاقي" لقضاء الضرورات خلال مواسم الربيع والصيف والخريف. إما في فصل الشتاء، فالحاجة تقضى في وعاء مخصص داخل زريبة الماشية. ثم ينقلون الوعاء لإفراغه في الخارج وغسله وإعادته إلي مكانه...

إما إعداد الطعام ففي خارج المنزل حيث يتم الطهي بآنية نحاسية أو فخارية على موقد تشعله ربة البيت مستخدمة الحطب. وغسل الآنية في الخارج أيضا حيث كانت "مياه الصفوة" وهي ماء نقع به رماد المواقد، تقوم مقام الصابون ومساحيق التنظيف الحديثة. غسل الثياب كان يتم بجانب عين الماء أو بجانب قناة تمر في أحد الأحياء القريبة. إما اغتسال الأبدان فلم يكن ضرورة قصوى كما هي الحال اليوم. فقط عند المناسبات الخاصة والحميمة، كانت تضرم نار

الموقد تحت حلة كبيرة لتغلي ماءها ويستحم المحتفى به. فيفرح به أهله وينتقل خبر "حمامه" في أرجاء القرية كافة! وربما وصل ذلك الخبر إلى مسامع بعض سكان القرى المجاورة أيضا!

إما القناديل العادية والملونة، فقد كانت تنير ليالي القرية، بعد أن تشحن بالزيت لتضاء فتائلها. ولطالما بقي القنديل الجيد والقليل المصروف مصدر اعتزاز وفخر للذي يملكه من الأهالي. إما كسره، فكان يشكل نكبة وخطبا. خبره المزعج يجعل القروي يهرع لزيارة أخيه المصاب ليؤاسيه ويخفف عنه...

عامة البيوت كانت دائما تبنى في "ملزق" فيه صخرة مكينة أو حافة ثابتة تشكل الحائط الخلفي أو جزء منه، وبالكاد كان لكل قسم من البيت نافذة واحدة عدا الباب. والنافذة كانت اختراعا جديدا.

ففي القرون الماضية كان للبيت باب يؤدي الى غرفة واسعة الجزء الخلفي منها واطئا يستعمل لزرب الماشية. والجزء الأمأمّي عاليا يستخدم لسكن العائلة. لهذا، فالشباك كان من علامات التطور والرقي مع مطلع القرن العشرين في القرية الجبلية. إما التطور الآخر فكان "الوجاق" (الصوبيا) أو مدفأة الحديد ذات القساطل التي تخرج من السقف، فيصعد الدخان منها إلى أعلى. لكنه بقي حكرا، ولمدة لا بأس بها من الزمن، على علية القوم فقط، فغالبية البيوت التي ورثت عن الماضي مدفأة من الطين، قد اضطرت إلى انتظار الموسم تلو الموسم كي تتمكن من شراء الاختراع الحديث الموجود في الأسواق. وقد عانى سكانها من عذاب تمضية الشتاء بباب مفتوح فقساطل المدفأة من طين يهرب الدخان من بين شقوقه. فتضطر العائلة إلى معايشة الدخان المنبعث من نار المدفأة أكثر من مائة يوم في السنة. الأمر الذي كان يتسبب في انتشار أمراض العيون وتفشيها. والعين غير المريضة كانت دليلا قاطعا على أن صاحبها ابن بيت. وان في بيته وجاقا حديديا يدل على ثرائه...

الماء كان وردا في عين الضيعة. فليس ثمة من قرية في الجبل مبنية إلا بقرب عين ماء أو أكثر. إذا كانت مياهها غزيرة اتسعت الضيعة. وان كانت شحيحة بقيت القرية مزرعة صغيرة. والعين ما خلت من الناس أبدا. رجالا ونساء... شيبا وشبانا... صبية وبنات... الكل كان يقصد المكان لتعبئة الجرار، أو لسقاية البهائم، أو لغسل الخروف، أو للشرب والراحة... ومغازلة الصبايا أو التصبب عليهن...

لم يكن في القرية بيت ليس فيه دابة واحدة أو أكثر. فالدابة كانت وسيلة النقل الخاصة والعامة أوائل القرن العشرين. ولم يكن منزل فلاحي ليخلو من زوج من البقر أو زوجان للفلاحة. وإذا كان ثمة من أحد لا يملك أبقارا، فهو المعدم الذي يعمل بالأجر لدى أصحاب البيوت العامرة التي تبقى عيون شبابها وبناتها "مثل الحلق".

طرقات القرى كانت في مجملها أزقة ضيقة ترابية أي "طرقات حافر". وعندما بدأت السلطنة العثمانية بشق طرقات عرضها أربعة أمتار، "طلعت الصيحة"! وبدأ الفلاح الذي تمر الطريق في أملاكه، وتأخذ منها جزءا أو كلا يمرض. فتعوده الأهالي للمؤاساة والتعزية. ويطلب له كل غريب وقريب من الله عز وجل الصبر والسلوان... "فشبر الأرض" أعز من الروح، ولطالما وقع قتلى وجرحى بين القرويين من أجل الحفاظ عليه.

العائلة الفلاحية كانت كبيرة العدد بالإجمال. فوفرة الأولاد تنجي الفلاح من انقطاع نسله عند "غدرات الزمان". فالزمان يغدر القرى بانتشار الأمراض الخطيرة المعدية مثل الطاعون أو الجدري أو الهواء الأصفر أو أي من الأوبئة الأخرى. عند ذلك لا تتمكن الشجرة من حمل كل ثمارها. فإذا سقطت منها ثمار بقيت ثمار. إما إذا كان عليها ثمرة واحدة أو اثنتان فقط!! فانقطاع النسل أخطر الأعداء. ووفيات الأطفال بالجملة أكبر الكوارث...

إن الزوجة الصالحة المباركة، بحسب المقاييس الاجتماعية السائدة يوم ذاك، هي التي كانت تنجب أكبر عدد ممكن من الذكور وأقل عدد ممكن من الإناث. فالصبي هو الرجوة الدائمة والسند الدائم. إما البنت فهي الضيفة في الدار إلى أن يأتي نصيبها فتتزوج "وتنفق". لكن أهلها يحملون همها من جديد أن طلقت أو مات زوجها. والفتيات اللواتي "ينفقن" ويتزوجن باكرا، كن مدعاة فخر واعتزاز لأهاليهن. إما اللواتي "يعنسن" ولا يتزوجن، فالعار يطالهن وينظر إليهن الأهالي بازدراء. كما تلوك الألسن الخبيثة سمعتهن فتجلبن لأهاليهن الكدر والهم... وما أكثر الأمثلة التي يتناقلها عجائز القرى في جبل لبنان حول موضوع " الصبي والبنت". وهي تعبر أصدق تعبير عن الطريقة التي كان مجتمع القرية يحلل بها أموره... منها:

- همّ البنات للممات...
- البنت: إما زوجها، وإما قبرها...
- بنات البيوت ما بتبور...
- ابن ابنك الك، ابن بنتك لا...
- قرش ابنك خبيه، قرش بنتك ارميه...
- أم البنين جبارة... أم البنات محتارة...
- ابنك الك، بنتك لا...
- البنت البائرة، إرض ماحلة...

لذا، ففرحة الصبي يوم ولادته كبيرة في الحارة. والمرأة التي كانت تلد الصبيان دللتها حماتها، حسدتها النسوة، وتشاوفت على جاراتها. إما التي كانت تلد البنات فلقد انتقمت منها حماتها، شمتت بها النسوة، وما كان عليها سوى احتمال المرارة والصبر على معايرة جاراتها لها. فكثرت زياراتها إلى المشتغلين بأمور التنجيم والسحر وضرب المندل. وداومت على الصلوات وتقديم النذور إلى أولياء الله الصالحين.

كثرة الأطفال في المنزل لم يكن هما على الأهل. فالاعتناء بالمولود الجديد ما كان مشكل يلهي الأم عن القيام بأعباء أعمالها الكثيرة. ففي الصباح، ترضع المرأة طفلها من ثديها وجبة مشبعة. ثم تحنكه، أي تطلي فمه من الداخل بمسحوق الخشخاش المخدر الممزوج بدبس العنب. فينام نوما عميقا ربما لا يصحو منه إلا ساعة توقظه بيدها بعد فراغها من العمل. عندها، يأكل الطفل وجبة ثانية، ويتحنك بكمية خشخاش أخرى، لينام نوما عميقا... وهكذا دواليك...

كان الصغير يربط في سرير خشبي حيث تثبت مؤخرته إلى قصرية وسيبك، وهما وعاءين للبراز والبول، موضوعين في أسفل السرير. إما رأسه فيحزم بعصابة شديدة من القماش كي "تتقولب" الجمجمة وتشتد. وفي بعض القرى كان الأطفال يربطون على الأرض لأن التراب "يجوهر البدن"، على حد الاعتقاد القديم... إما لباس الطفل فكان عبارة عن قميص طويل مفتوح الظهر وحمامه أو اغتساله، فبعد الولادة رأسا وعلى أيام متتالية. حيث يشطف جسمه بالماء والملح كي تموت الجراثيم العالقة. بعدها، يؤتى بنبات الريحان المجفف. فيدق وينخل. ثم يجبل بزيت الزيتون ويدهن على أنحاء الجسم. فيقي المولود الجديد شر الأمراض الجلدية كافة. من هذه العادة القديمة، جاء المثل القروي القائل: "مش تعبان بدق ريحانه...". يستعملونه لوصف شخص ما، قام بعمل سلبي تجاه شخص آخر...

"إيه يا ابنتي... فالدارج اليوم غير الذي كان دارجا من قبل..." تؤكد العجوز وهي تهم برواية قصتها. فابنة عمّها اللزم، كانت أم حديثة العهد لطفلة مزعجة كثيرة الصراخ. صوتها "الغرش"، ما كان يكف عن الزعيق سواء كانت "جائعة أم شبعانة". فسببت لأمها محنة القلب! حيث كان عليها ان تقطع عملها عدة مرات في اليوم كي تراعي شؤون المولودة النكدة الطباع. وفي أحد الأيام، أرادت الذهاب الى نبعة بعيدة لغسل تلة من الثياب المتسخة المكدسة. غدت باكرا مع صياح الديك، أرضعت الطفلة وحنكتها بكمية مهولة من الخشخاش آملة بإرقادها. وعندما عادت تعبة منهكة، فرحت لأنها وجدت ابنتها لا تزال غارقة في سباتها مما سمح لها بالراحة قليلا قبل أن توقظها، ولكن، عندما حاولت ذلك وجدتها جثة هامدة! فكمية الخشخاش كانت قاتلة...

جملة أخبار أخرى سمعتها في عدة قرى تدور حول وفيات أطفال سببها الخشخاش. ذلك عندما كان يعطى بكميات كبيرة، لا يقوى جسم الصغير على احتمالها.

إما غذاء الأطفال، إلى جانب حليب ألام، فاقتصر على "الكشك" المطبوخ سائلا كالحساء. و"الكشكية" المصنوعة من الطحين المطبوخ لزجا مع الماء. و"المعذبة" وهي نوع من الحلوى المعدة من دبس العنب والماء أو الحليب بالإضافة إلى النشاء أو الطحين.

الأسماء القديمة التي كان القروي يطلقها على أطفاله كثيرة نابعة في مجملها من بيئة القرية. منها للذكور مثل: دعيبس، هايل، رامح، فخور، مدلج، مرهج، فضل الله، نعمة الله، عبد الله، صقر، عقاب، باشق، شديد، مجيد، قاسم، نصار، سجيع، رشدان، سلوم، عيد، دليقان، أسد، عسّاف، نجم، شبل، دعّاس، عبّاس، خزاعي، رافع، وغيرها. ومنها للإناث مثل: شهلا، رحمة، مياسة، بندر، بهجة، ست النصر، زاد الخير، زاهدة، فهدة، خزما، قدم، كفا، أما، بهية، زهيه، لطيفة، ورد، زهر، قطف، نسيبه، سعود، منتهى، فضة، لبيبة، وسيلة، طريزة، شريفة، دلة، لونظة، بارق، عدلة، مفضلة، يوسفية، نعايم، مهيبة، وغيرها.

"هاي، هاي، كم تغيرت الأيام!" يقول العجوز مندهشا فاغرا فاه. فلقد ضيعت المدنية أساليب التربية الصارمة الصحيحة. وها هم الأطفال يعيشون اليوم في نعمة ما بعدها نعمة. دلال أهاليهم لهم كثير. و"الغنج" يفسد الأخلاق. يترحم الرجل الطاعن في السن على أمه التي أنشأته حسب الأصول. فهي لم تدلله يوما وهو مستفيق. إنما كانت تدلله وهو نائم فقط! انه يجد في ذلك كل الوعي والإدراك وبعد النظر. واكبر دليل لديه هو شخصه الكريم وسيرته المشرفة. فما من أحد يستطيع انتقاده بكلمة ولله الحمد. والسر كل السر يكمن في صرامة أسلوب الوالدة، رحمها الله في تربيته...

والأغاني التي كانت الأمهات تغنيها لتدلل بكلامها الأطفال كثيرة. وهي تعبر اصدق تعبير عن الإحساس والمشاعر والبيئة وطريقة العيش وأسلوب التفكير والمنهجية الحياتية. منها:

أولا:
يا عساف كبار كبار
عنزات جدك تلو الدار
بيك ما بيسرح فيهن
وجدك صار رجال ختيار...

ثانيا:
قاسم هون ومنوش هون
قاسم تحت البلوطة

يا رب يعيش ويكبر
ويحمل بالجيبة فوطة...

ثالثا: يا حمود الدلالي
يلبقلك حارة عالي
تلبقلك ست الحلوين
تعيطلك يا رجالي...

رابعا: يا غزال بروم بروم
امك راحت عالكروم
ضيعت منديلها
لقيتو بسريرها...

خامسا: ويا حادي واحدي بالليل
ويا عرب شدوا عالخيل
وانكانوا خطار معكن
الله يوصلكن بالخير
وانكان خطار مش معكن
الله لا يقشعكن خير!!!

سادسا: ويا بيطار يا بيطار
دق النعلة بالمسمار
بيطر لعباس مهرة
وبيطر لبهجات حمار!!!

سابعا: سلمان يا بو الطبنجات
يا نقال البارودة
يلبقلك جوز غدارات
وعاجنبك سبع فرودة!!!

ثامنا: ويا تفاح بلوداني
ومتكي على العوداني
شوفولي خزاعي وين صار
بعدو بأول دكاني...

المفاهيم الاجتماعية التي كانت تحكم الحياة اليومية في القرية القديمة إذا، نراها جلية في الأغاني المدونة أعلاه. فأم عساف في الأغنية الأولى، تنتظر بأمل وفرح، أن يكبر ابنها ليرث الكار عن أبيه "المعاز". ووالده قد ورث كاره هذا عن أبيه أيضا. فسرح بقطعانه في البراري والحقول.

أما أم قاسم في الأغنية الثانية، فهي تراقب عن كثب ولدها وهو يلعب في ظل شجرة البلوط. فتحلم وتنتظره ليشب ويكبر كي يتنعم برغد العيش بعد أن يفتحها عليه الله. فيلبس حلة فاخرة في جيب سترتها منديل، يدل على ثراء صاحبه وبحبوحته.

أما الست أم حمود في الأغنية الثالثة فتأمل بتزويج ولدها من اجمل حسان الحارة. ليسكن وإياها في بيت عال سطحه من القرميد الأحمر يبتنيه حمود مكان منزل أبيه القديم، ذي السطح الترابي.

أما في الأغنية الرابعة، "فالغزال" الصغير يدور باحثا عن أمه التي ألهاها العمل عنه. فقد ذهبت المرأة إلى الكروم لملء سلتها عنبا وتينا. بعد أن أضاعت منديلها وبحثت عنه لتجده وتضعه على رأسها قبل أن تخرج من الدار، فلا تلوك سيرتها الألسن، إن شاهدها أحد بلا المنديل.

أما طموح خالتنا أم خطار في الأغنية الخامسة فهو أن ترى ولدها فارسا يركب حصانه مع الجماعة. متنقلا وإياهم من مكان إلى آخر. وسلامة خطار عند أمه بالدنيا كلها. فهي تبتهل وتدعو بالخير للجميع، فقط، إن كان ولدها برفقتهم. أما في حالة عدم وجوده معهم فليذهب الكل إلى الجحيم.

الأغنية السادسة تنقل إلينا بطرافة ما تكنه الأم لاثنين من أبنائها فهي تريد مهرة لعباس وحمارا لبهجات. تتمنى على البيطار أن يدق المسأمّي ر بنعالهما. ومن الواضح إن عباسا هو المفضل لدى الوالدة.

أما سابع الأغنيات فتعبر كلماتها عن الأمنية الدفينة في خاطر أم سلمان. فهي ترغب بأن يصبح أبنها شيخا للشباب في القرية. إنها تربيه على القوة واستخدام السلاح من طبنجات وبنادق وغدارات ومسدسات ليهابه الكل ويضرب صيته بين الورى. عندما يثبت نفسه كبطل صنديد في المعارك والاقتتال. فيتكل عليه أهل الحارة ليذود عنهم ويحمي حماهم.

أما في الأغنية الثامنة، فالست أم خزاعي تنقل إلينا من خلال أغنيتها بان أهل جبل لبنان على أيام شبابها، كانوا يأتون بالتفاح من منطقة بلودان. يجيء به المكاري إلى القرية حاملا إياه في خرج على ظهر دابته. وألام تريد لابنها أن يكبر ويبدأ بالمشي كي تبعث به إلى الدكان ليتحوج لها أغراضا توصيه عليها. لكنه يتأخر في الوصول، لتقول لنا الأغنية، بأنه لا زال طفلا حديث العهد بالمشي متعثر الخطى.

من الملاحظ هنا، بأن جميع الأغاني السابقة هي للصبيان، فنصيب البنات من الدلال كان اقل بكثير. أغنية أنثوية واحدة فقط استطعت أن اجمع كلامها من أفواه العجائز. وهي تقول:

شريفة حملت جرتها
وما استنت رفيقتها
ولما حلت شكلتها
وقع الخيال وحصانو!!!

فوالدة شريفة، تريد للصغيرة أن تكبر على عجل لتساعدها في شتى الأعمال المنزلية بهمّة ونشاط. فتحمل الجرة مسرعة إلى العين تملأها ماء، ولا تنتظر رفيقتها إن هي تلكأت. والسيدة تعتد بجمال ابنتها الذي يصرع الخيال والحصان في آن معا. حين ترخي الصبية شعرها على ظهرها. فيسرع العاشق عندها قارعا الباب طالبا القرب. وتتزوج الحسناء لينتهي موضوعها على خير وسلامة.

أما الأغنية الأخيرة، فيشمل كلامها الأخ وأخته. تغنيها لهما الوالدة فتنصف الولد وتجحف بحق البنت حين يصدح صوتها:

دبّة كلي،
دبّة اشربي،
كلي البنت،
وخلي الصبي!!!

ها هي ألام ترجو الدبّة بأن تأكل البنت وتشبع بها، بعد أن تدعوها إلى مأدبة طعام وشراب عارمة. أما الصبي، فليطول الله بعمره. لتفرح به والدته وتفقأ "حصرمة" في أعين العوازل!

أما الألعاب والدمى فكان بعضها يصنعه الأولاد بأنفسهم. وبعضها الآخر تصنعها لهم أمهاتهم. حين يأتين بقطع من قماش، يحشونها بالتبن ويخيطونها على شكل إنسان أو حيوان يسمونها "عيبة". أو حين يلفون كرات من صوف مغزول يتقاذفها الصغار كالطابة. أما الحصان الذي كان الولد يسرجه ويعتلي صهوته، فقصبة طويلة ملساء أو قضيب زعرور. والجمل كان عبارة عن ثمرة صفراء كبيرة من الكوسى تدق لها عيون وأرجل من أعواد الحطب. ولجمل الكوسى هذا اغنية انشدها له صغار القرى تقول:

يا حبلما، يا مبلما
وين الجمل؟ عالقنطرة
شو أكله؟ حب الذرة
شو شربه؟ حب الندى...

لعبة البنات الأحب كانت "اللاقوش" أو "اللاقوط". قانونها يقضي بأن تأتي المتباريات بعدد من الحصى الصغيرة الملساء. ترشقها الواحدة منهن عاليا بيدها لتعود فتتلقاها ثانية. والتي تربح هي التي تتمكن من تلقي والتقاط الحصى كلها، أو أكبر عدد منها.

إحدى العجائز ضحكت من الصميم عندما تذكرت أويقات اللعب في زمن الطفولة. لم يتبقى في فم المرأة سوى بضع أسنان سوداء خسرت نصاعة البياض مع مرور السنين. حدثتني فقالت: "رفيقتي المفضلة في اللّعب كانت تدعى طريزة رحمها الله. فلقد ماتت منذ سنوات عدة بعد أن أقعدها المرض وفتك بها. ألعابنا لم تكن سوى قطع من الزجاج الملون المتبقي من القناديل المكسورة. كان على السائرين ليلا حمل قناديلهم معهم كي يتبينوا الطريق. كثيرا ما كان الناس يوقعون تلك القناديل أرضا فتتناثر شظاياها قطعا مختلفة الأحجام متعددة الأشكال. نحمل ما يتيسر لنا منها ونصعد إلى سطح القبو لنزينه بها. تلك كانت لعبتنا التي لم أجني منها سوى الحظ العاثر. ففي أحد الأيام دخلت قطعة من الزجاج المكسور في أسفل قدمي وجرحتني جرحا عميقا. علت صيحتي وملأ صوتي الحارة كلها! رؤية الدم النازف كنافورة ماء، أرعبتني كثيرا. جاء من حملني إلى البيت حيث اجتمعت بعض من النسوة حول أمّي يسدين إليها النصح والإرشاد. كل منهن باحثة بما تفتق عنه عقلها لمداواة الجرح كي يطيب. وأخيرا، عولجت بإزالة القطعة الحادة من قدمي وحشو الجرح ترابا... أيام عديدة قضيتها بالقفز على قدم واحدة كلما اضطررت إلى القيام بأمر ما مستعجل ليس من الممكن تأجيله... أثر ذلك الجرح لا يزال واضحا حتى اليوم...".

قالت العجوز جملتها الأخيرة، وخلعت جواربها كي تريني أثر جرحها المزمن ذاك. شاهدته، أبديت استغرابي لمنظره. ثم دعوت لها بطول العمر قبل أن أشكرها وأنصرف.

عجوز أخرى تروي حكاية عن جارات لها تربطها بهن أواصر القربى "فهند وزهر كانتا، والحق يقال، شريرتين صغيرتين لهما في كل يوم قباحة. مرّة ذهبتا تسرحان بالبقرات في حقل قريب عندما مر بهما زيّات محملا دابته زيتا جاء كي يبيعه في القرية. وكان الزيت معبَّأ في ظروف مصنوعة من جلد الماعز. على كلِّ جانب من جانبي الدّابة ظرف محكم الرّباط كي لا يسيل محتواه. سمعت الفتاتين رنين جرس الدّابة عن بُعد. كما سمعتا صوت رجلٍ ينادي:"زيت... زيت الحلو، يا زيت". خطر لهما خاطراً شرّيراً صمّمتا على تنفيذه بدِقّة. نادت إحداهنّ الرّجل الّذي لبّى النّداء مقترباً منها مستفسراً عمّا بها. ادّعت أمامه بأنّها تريد أن تذوق طعم زيته، فإن أعجبها، دلّته على بيت أهلها ليبيعهم رطلاً كاملاً كانوا بحاجة لشرائه. سُرَّ الزَّيات، وحلّ الرّباط عن فم أحد الظّرفين المعبّأين وأذاق الفتاة طعم محتواه. لكنَّ الخبيثة كذبت مؤكِّدة بأنَّ الزَّيت حادّ ولا يصلح أبداً. فعرض عليها البائع المسكين بطيبة قلب متناهية أن يذيقها طعم الزَّيت المعبّأ في الظّرف الآخر لأنَّه أعتق وأطيب. فأقنعته بأن يتركها تمسك له فم الظّرف المفتوح بينما هو يقوم بحلّ رباط الظّرف الثاني. فتتسنّى لها المقارنة بين محتواهما طعماً ولوناً وكثافة. صدَّق الرّجل بسذاجة. وبدأ عمله، عندها غمزت "الشّيطانة" لرفيقتها التي كانت قد هيّأت كميّة من نبات شائك. فرفعت ذيل الدّابة، داحشة الشّوك في مؤخرتها. فجفلت "وقيقبت" راكضة دالقة الزّيت كلّه على الأرض. صفق الزّيات كفاً بكف. وهرول لاحقا بدابّته لاعناً الدّين والدّنيا. أمّا هند وزهر فلقد غمرت الفرحة بالنّصر المبين قلبيهما.

وصل الرّجل الغريب إلى ساحة القرية حيث كان بعض من الصِّبية يلعبون. رشدوه إلى منزلَي أهل الفتاتين بعد أن وصفهما لهم. فقصد "الجماعة" وشكا أمره إليهم وقصَّ قصّته من ألفها إلى يائها. تدبَّر والديّ الفتاتين الأمر، ونقدوا الرَّجل ثمن الزَّيت كلّه. لكنّ عقاب الصّغيرتين كان وخيماً. إذ سُمِعَ صراخ كلٍّ منهما في الحارة كلّها طولاً وعرضاً. فلسعات قضبان الزَّعرور علَّمت على جلدهما الطّري لأكثر من أسبوع.

قصّة أخرى تروي ذكريات عن أيام "الولدنة" فتقول:"أهلنا كلّهم في الحقل يعملون. فالأيام أيام صيف وحصيدة. كان في بيتنا "خلوة" ملحقة تضم رفاة أحد أجدادي الذي كان ورعاً تقياً. أمضى حياته كلّها زاهداً متنسِّكاً، فآمن النّاس بسرِّه المقدّس. ووهبوا إلى خلوته الهبات وقدّموا إليها النّذور. صباح ذلك اليوم، لم يكن في المنزل سوى شقيقتي الصُّغرى وأنا. سمعنا رنين جرس دابّة تسير باتجاه بيتنا، فأسرعنا إلى حافّة شوار مطلّة نتبيّن الأمر. رأينا مكاريّاً غريباً يسوق الدّابة ناحيتنا. نادينا عليه مستفسرين عن غرضه منّا. فأفاد بأنّه محمّلاً تلك الدّابة هبات وهدايا للخلوة. أرسله بها أحد النّاس وفاء لنذر قطعه على نفسه قبل حين. أشبعنا ذلك الرّجل سباباً، وشتمناه شرّ شتيمة! ورشقناه بالحجارة مانعينه من الوصول.

عند العصر عاد أبي إلى المنزل فأخبرناه بما جرى وكان بيننا وبين ذلك المكاري الغريب الذي أراد بنا شرّاً فقمعناه وقطعنا دابر خطّته! غضب والدي علينا أشدّ الغضب وتوعدنا بالضرب المبرح ثمَّ ركض مسرعاً ليبحث عن الرّجل في كافة أرجاء القرية حيث وجده متّكئاً إلى جذع سنديانة كبيرة وعتيقة قرب عين الماء. فعرَّفه بنفسه واعتذر إليه اشدَّ الاعتذار. دعاه إلى المبيت عندنا وبذل قصارى جهده ليطيِّب خاطره. فأكرم وفادته وعزّزه، وردّ إليه اعتباره. أما القصاص الذي نلناه بقسط وافر، فهذا يا ابنتي ما لا احب أن أتذكره".

العجوز التالية تروي ذكرى يوم كامل من ايام صغرها، امضته برفقة شقيقها في الوادي. وكان الطقس شتاء بارداً والثلوج متراكمة! "هلعت أمّي رحمها الله لمنظر الطبيعة في الخارج. فقد كان لدينا شجرتي زيتون في وادٍ قريب خافت ان يكسر الثلج اغصانها. لذا وجدت حلا سريعا فاعطت لكل منا قصبة طويلة. وبعثت بنا كي ننفض الثلوج عن الاغصان المتكئة. عند وصولنا رايت منظرا لن انساه ما حييت! فالاشجار بيضاء ناصعة والاغصان كلها على الأرض تنوء

تحت حمولتها. صرنا نضرب الغصون النائمة بالقصب كل غصن بمفرده فيرتفع عاليا بعد ان ينفض الثلج عنه ونفرح به راقصين حوله مهللين له بالغناء:

رزق الله لمن كنا
نلعب تحت الزيتونة
نحوش ونغني ونقول
مين نقفك يا زيتونة!؟

وهكذا مضى نهارنا البارد ذاك في الوادي. فنحن لم نجروء على العودة إلى البيت الا بعد ان ارتفعت جميع اغصان الزيتون عالية خضراء في السماء".

عجوز تذكر حادثة طريفة اخذت من وقتها اسبوعا كاملا عندما كانت صغيرة السن. فلقد زار العائلة عصفور دوري في احدى السنوات الباردة عندما دخل إلى غرفة الشتاء من طاقة عالية في الحائط. واختبأ تحت الكنبة حيث كانت تجلس القطة التي والفت عليه واصطحبت معه فهي لم تؤذه أبدا بل سمحت له بمشاركتها الطعام والشراب. وابتكرت واياه طرقا عجيبة للتسلية واللعب وتمضية الوقت. فشكلا مصدر سعادة للصغيرة التي "طرحت الصوت" على الرفاق! فأصبح بيتها مضافة لهم جميعا. فالفرجة على قطة تلهو باستمتاع كبير مع عصفور، عجيبة لن تتكرر ثانية! وكم كان اسف صغار الحارة شديداً عندما انتهت موجة الصقيع تلك. لأن العصفور صفق بجناحيه وطار من الطاقة التي دخل منها. اما القطة فسبب لها رحيل صديقها صدمة نفسية وحزنا شديدا فقطعت الاكل لأيام عديدة. ولم تستفق المسكينة من عناء مصيبتها الا عند حلول شباط حين لفى عليها قط بري تزوجها وحملت منه!

"اما العركة" التالية الذكر التي دارت رحاها على عين الماء، فبطلتها الصنديدة تروي تفاصيلها بكل اعتزاز وفخر فالمجد الذي نالته بانتصارها عظيم لا يستهان به!

"كنت حينها في العاشرة من عمري ارسلتني أمّي بالجرة إلى العين واوصتني بألا اتاخر في العودة. انتظرت دوري على احر من الجمر وما ان هممت بوضع جرتي تحت المزراب حتى أتت إحدى النسوة رمقتني بازدراء ووضعت جرتها مكان جرتي. فاعترضت على تعديها السافر ذاك وحاولت إفهامها بأنني على عجلة من أمري. لكنها نظرت إليَّ ساخرة من صغر سني وقالت لي بكل وقاحة:"اسكتي يا بنت! قفي هناك! انا املأ جرتي أولا ثم تملئين جرتك". فصرخت في وجهها قائلة:"اسمعي يا هذه! ان لم تعيدي جرتي بيدك إلى مكانها سأكسر جرتك وسأرمي بك تحت مزراب العين". رفعت قبضتها تريد لكمي لكنني كنت اسرع منها. إذ انحنيت بخفة "وفركشتها" فوقعت ارضا وتمرغت هي وثيابها بالماء. كسرت لها جرتها وملشت شوشتها ووليت هاربة. منذ ذلك اليوم اصبح الكل يعمل لي حسابا ولم اعد اضطر إلى الانتظار طويلا لملء جرتي من العين. إذ أصبحت النسوة تفسحن لي المجال على عجل وبدون مشاكل أو مشاحنات".

عجوز اكد لي انه لا يذكر من طفولته الا العمل الشاق والدؤوب. فللأولاد مكانهم في دورة العمل في بيوت الفلاحين. حين كانوا يرسلون إلى البراري لجمع (حشّ) الحشائش الخضراء الطّرية التي كانت تُخزَّن بكمّيات كبيرة مؤونة لطعام الدّواب والأبقار والمواشي. أو يساعدون الكبار على رعي الماعز والأغنام. أو يسوقون الدّابة إلى العين كي تشرب. أو يساهمون في عملية ريِّ المزروعات. أو يجلسون في العشيَّة يقشِّرون قضبان التّوت الذي يؤخَذ وَرَقُه لإطعام دود الحرير. بحيث يُربَط قشر هذه القضبان رزماً تُطْعَم للفدّان في فصل الفلاحة فتغذّيه.

تلن محدِّثي يذكر جيّداً سهرات أيام الشِّتاء حول المواقِد فالسّهرية كانت تمضي بسرد الحكايا على الأولاد فيستمعون إلى القصص وهم يأكلون الحلوى المُعَدَّة من الطّحين والدِّبس والنِّشاء والحليب. أو يقضمون الجوز والزَّبيب والتِّين المجفّف والقضامة الصّفراء التي كانت تُحَضَّر من الحّمص المبلول المقلي بطريقة فنّية خاصّة.

والأولاد حكاياهم عديدة تكاد لا تُحصى. إحداها كانت تقصّ قصّة مارد من الجِنّ اختطف ابنة ملك من ملوك الزّمان تُدْعَى بدر البدور بعد أن تاه بها غراماً. أخرى تتحدث عن فارس شجاع ووسيم طار بعروسه الجميلة في ليلة قدر على ظهر حصانه الابيض حيث سكنا في بلاد بعيدة جميع سكانها سعداء مسالمون لا يتعدون على أحد. فعاشا بثبات ونبات وخلفا صبيان وبنات. أو تكون الحكاية عن عنزة عنوزية قرونها حديدية ولها سبعة جدايا تغلبت بفضل فطنتها وذكائها على غول كبير فاستخرجت اولادها من بطنه بعد ان نطحته بقوة فدلقت كرشه. وكان قد التهم الصغار عندما كانت امهم خارج الدار. أو عن فتاة اسمها بنت الجورة ما سمعت كلام امها فذهبت وحدها إلى الكروم حيث لاقاها ذئب كبير شرس سألها:"يا بنت الجورة من أين تريدين ان ابدأ بأكلك"؟!! فأجابته بحزن ويأس:"كلني من رجليي تشوفك بعينيي"! فسمع الكلام وأكلها من رجليها لتراه بعينيها يلتهم جسدها المنمنم الغضّ قضمة قضمة وهي تصرخ من الآلام المُبْرَحة! أو عن سيرة أحد النُّساك الّذين زهدوا في الدّنيا واهلها فأكرمهم ربّ البريّة واصبحوا ن اهل الخير يتبارك كلّ من يزور تربتهم وقبورهم.

عجوز تذكر ان جدتها كانت النجمة الدائمة في احياء سهريات الأولاد والبنات في فصل الشتاء والبرد والرّاحة خاصّة وقد كانت تتقن صنع "الحلاوة اللواحية" وتملأ الجيوب بالزبيب وتقص الحكايا فيصيخ الصغار بأسماعهم. اما الذي تخوله نفسه باحداث الضّجة والجلبة كانت الجدة تخيفه "بأبو عبا" أو "بالحامل راسه بين اكتافه"!

ولطالما رتعبت القلوب الصغيرة وارتجفت من هذين المجهولين الذين لا يهتمان الا بخطف الأطفال وتعذيبهم!

حكاية قرقصون ابنة ملك السند التي احبت راعيا غريبا لفى إلى مملكة ابيها بثيابه الرثة، لا تزال عالقة في الذاكرة فالحسناء الجميلة فضلت حبيبها المعدم الفقير على اغنى واجمل العرسان الذين تقدموا لخطبتها بالجملة، غرامها فاض يوم كانت تتنزه برفقة وصيفتها في الحقول وسمعت عزفا رائعا على الناي سلب منها اللب. اخذ العازف قلبها وحواسها قبل ان تراه. عندما علم الملك بذلك الامر غضب اشد الغضب وطار صوابه. اثار مشاكل كثيرة للحبيبين. لكنه عاد ورضخ لواقع الحال بعد ان هزلت ابنته وساءت صحتها. نهاية الحكاية السعيدة تفيد بان ذلك الراعي ما كان سوى أمّي ر من الامراء تخفى في زي راع وجاب بقطيعه ونايه اصقاع الدنيا طولا وعرضا. ذلك العناء كله تكبده في سبيل البحث عن عروس تحبه لشخصه لا لماله ومركزه. اخذ الحبيبة قرقصون عروسا بارعة الحسن إلى مملكة ابيه وتوجها مليكة على قلبه وبلاده.

أحد العجائز تذكر قصة يوسف الحسن بحذافيرها كافة واصر على سرد تفاصيل تفاصيلها على مسامعي كي اخذ منها عبرة ودرسا. الحكاية القيمة قصها على مسامعه معلم المدرسة فجعل من يوسف ذاك مثالا اقتدى به التلميذ طوال حياته، كيف لا، فيوسف قد استحق بفضل جماله وذكائه وصبره الوصول إلى اعلى المراتب في احدى الممالك القديمة. هذا كله بعد ان ظلم وسجن زورا وبهتانا لكنه فسر بحذاقة أحد احلام الملك فعفى عنه وعينه وزيره الخاص ولما وصل إلى تلك المرتبة العالية تسامح بنبل وغفر لمن اساء إليه. فاصبح بذلك مضربا للمثل في الصدق والشهامة والاخلاص ودخل في منهاج مدرسة القرية في أوائل القرن العشرين.

في ذلك الزمن لم يكن جميع الاهل يقدرون قيمة العلم احدهم شكا امره الي فقال:"لم يرض والدي بان يرسلني إلى المدرسة ولما الحت عليه والدتي رحمها الله صاح في وجهها (وهل ابعث به إلى هناك فيتعلم الفلسفة وياتيني غدا وقد لبس برنيطة على رأسه! ويقول لي بونجور وبونسوار فأخسره! أين عقلك يا امراة! فليذهب ويساعدني على ركاش الكروم)".

احداهن اوضحت بشكل قاطع مانع ان العلم لم يكن دارجا للبنات قالت:"أبي قد ارسل الصبيان إلى المدرسة لفك الحرف اما نحن فالى العمل منذ نعومة اظفارنا. لم يكن مسموحا للبنت بان تعرف القراءة والكتابة كي لا تبعث مكاتيب الغرام للشاب الذي تحبه". لكن صحة كلام هذه السيدة جاء نسبيا فبعض العجائز الاخريات اعترفن بمثله لكن بعضهن الاخر ارسلن إلى المدارس حيث تعلمن الصرف والنحو وعلم الحساب. واحدة تذكر مفاخرة متباهية:" كان والدي رحمه الله

صاحب معمل لحل خيوط الحرير ارسلني إلى المدرسة فنبغت وأصبحت اساعده في اجراء جميع حساباته. هذا مما اثار بالغ اعتزازه بمواهبي العقلية وذكائي الخارق فاصبح يناديني حين ياتيه ضيوف مهمون محترمون فأحسب امامهم اعقد المسائل واصعبها. أحد الضيوف ادهشته فطنتي فاعترف مسلما بانني اشطر من ابنته جليلة التي كانت زينة بنات قريتهم"! وتكمل العجوز حديثها واصفة بان الطلاب على زمانها كانوا يكتبون المسائل الحسابية على الواح حجرية باقلام من الحجر أيضا اما الاملاء فكتابتها كانت على أوراق خاصة سميكة وبريشة من قصب حبرها مستخرج من الماء المجبول بالدلغان الاصفر وهو نوع من التربة.
مدرسة القرية كانت صغيرة بالكاد تتسع للعدد المتواضع من الطلاب مركزها في أحد البيوت أو في أحد الاديرة كل من حدثني عنها تذكر أول ما تذكر لسعات عصا المعلم الموجعة على الايدي والارجل والاقفية. كان الاستاذ يوصي تلأمّي ذه ويجبرهم بأن يجلبوا له حزما من القضبان الجالسة الطرية الطويلة فيكسرها على ابدانهم. كان الولد منهم يحمل كراريسه في حمال من الكتان تخيطه له امه ويقصد غرفة صفه فيتعلم القراءة تهجئة في البداية ثم كرجا ثم كتابة الاملاء فإذا امسك التلميذ الحرف انهى علومه وتخرج خاصة بعد ان يحفظ عن ظهر قلب جداول الجمع والطرح والضرب والقسمة.
في ايام الشتاء كان على كل تلميذ ان يحمل معه يوميا قطعة من الحطب أو اكثر ليساهم في تدفئة المعلم فالموقدة جاثمة بالقرب من مقعده بعيدا عن مقاعد الأولاد والتلميذ الشاطر كان استاذه يكافئه قائلا:"تعال إلى قرب الموقد ودفئ يديك قليلا". فيهرع الولد إلى جانب النار ليأخذ قسطا من الدفء والحرارة. احداهن باحت بان والدتها كانت تجبرها على شرب كأس من النبيذ عوضا عن الحليب في الصباح قبل دهابها إلى المدرسة وذلك كي يبقى جسدها دافئا في غرفة الصف الباردة ايام الشتاء. "فالنبيذ حام يقتل البرد كما تعلمين" قالت العجوز ثم روت ضاحكة ذكرى أول يوم لها في مدرسة الضيعة:" كنت طفلة صغيرة دخلت غرفة الصف فوجدت ان جميع التلامذة اكبر مني سنا كانت المعلمة تشرح درسا في الحساب لم افهم منه شيئا! في نهاية الحصة اعطتنا مسألة بسيطة كي نحلها في فكرنا ونعطيها الجواب لم افكر في شئ لأني لم افقه اصول اللعبة! فوجئت عندما نظرت حولي بعد قليل لأرى أصابع الأولاد مرفوعة رفعت إصبعي مثلهم صارت المعلمة تنادي كل تلميذ بأسمه كي تأخذ الجواب الصحيح لكن جهودها ضاعت هباء ولما أفلست من الجميع نادت علي وقفت بجرأة رافعة الصوت وقلت لها: "سبعة عشر" وكم كانت دهشتي عظيمة عندما ابتسمت لي وطلبت من الأولاد أن يصفقوا لجوابي الصحيح".

كم هو قليل عدد العجائز الذين اكملوا دراستهم في مدرسة القرية حتى النهاية. والسبب الوحيد الواضح كان دائما "ظلم المعلم وقساوته المتناهية في التعامل مع الاولاد". احداهن روت حادثة طريفة ادت بها إلى العزوف عن متابعة التحصيل. انها تذكر جيدا كم كان اجتهادها عظيم! فبرغم اضطرارها للتغيب تكرارا عن الصف الا انها لم تقصر يوما في دروسها! ففي معظم الأيام كان عليها البقاء في البيت لمساعدة والدتها في الاعمال المنزلية الكثيرة خاصة وانها كبيرة البنات ومسؤوليتها تجاه افراد العائلة هائلة، لكن ذلك الغياب المتكرر لم يكن ليؤثر على مستوى فهمها واستيعابها للدروس فبسبب "شطارتها" اجلستها المعلمة في الصف الامأمّي دائما وابدا إلى ان جرت الواقعة! ففي أحد الأيام جاءت احدى نساء القرية في زيارة كي تعود ابنة لها في المدرسة فوجدت ان ابنتها تجلس في مقعد خلفي فما هان عليها الامر لذا عادت لتوها إلى منزلها ثم رجعت وفي يدها هدية قدمتها إلى المعلمة وطلبت منها بلطف ان تنقل مكان جلوس ابنتها إلى الصف الامأمّي استجابت المعلمة للطلب واجلست ابنة المراة في مكان محدثتنا العجوز التي اكملت الرواية قائلة:" عز علي ذلك كثيرا يا ابنتي. فقد كان ظلما والظلم لا يطاق! حاولت طرد الفتاة من مكاني الشرعي فما استطعت. المعلمة حسمت الموضوع بكلمة ضاقت الدنيا في وجهي! تركت حمال كراريسي في غرفة الصف ووليت هاربة لا الوي على شيء بعد ان صفقت الباب خلفي صفقة دوى صداها! فهزت ارجاء المكان. وهكذا تركت العلم اعتزلت الدراسة ولم اعد اليها أبدا".

عجوز طاعن في السن علت البسمة ثغره فنسي امراضه المشتركة من سكري وضغط ونشاف في شرايين القلب وخلافه معتدا بنفسه تذكر واقر انه قرأ في سبع مدارس على التوالي! لكنه وبرغم نجابته اللافتة عاد فهجر العلم بعد ان تعرض لحادثة الزمته الفراش لأكثر من ايام سبعة! ففي أحد الأيام كان في غرفة الصف يجلس بالقرب من ولد اخر يحاولان القراءة في كراريسهما بينما جلس المعلم ساهيا في مقعده مصطليا بنار الموقد رأى قشة صغيرة على صفحة كراس صديقه فهمس في اذنه سائلا اياه ان كان باستطاعته ان يزيل تلك القشة بلسانه لم يحمل ذلك الرفيق غمزة! رأسا مد لسانه ثم اخفظ رأسه باتجاه القشة ناويا عليها لكن محدثي كان اسرع منه ضربه ضربة قوية على رأسه فأطبق فكاه على اللسان مما المه اشد الالم فصرخ على ما قدر الله له بأن يصرخ. هب المعلم من سهوته مذعورا مستطلعا الامر ثم حمل عصاه وقصد الولد المشاغب ليضربه على كافة انحاء جسده الصغير بلا شفقة ولا رحمة ولم تكن ثياب الفتى لتقيه من لسع العصا فقد كان يلبس قميصا طويلا من الكتان لا فوقها ولا تحتها لذا علمت الضربات كلها على جلده الذي ازرق وتورم. في مساء ذلك اليوم التاريخي رأى الوالد حال ابنه وسمع انينه المتواصل فهاج وماج وغضب اشد الغضب فتل شاربيه بصق على كفه وحمل عصا غليظة ثم سار قاصدا مكان اقامة معلم المدرسة لكن المعلم لم يفتح بابه ولم يطل برأسه من النافذة بعد ان سمع صوت الرجل مزمجرا عن بعد شاتما له لاعنا اياه وقف الوالد مستنفرا طالبا المنازلة لاكثر من ساعة وكان يصيح بأعلى صوته:"أين انت يا ذقن الكذا؟! يا ابن الكذا وكذا وكذا قابلني أيها الجبان فأريك كيف يكون ضرب العصا... تتمرجل على طفل أيها الناقص الفاعل التارك..." من يومها حرَّم الولد عن الذهاب إلى المدارس وابتدأ بالعمل مع ابيه في البيادر والحقول.

عجوز اخر لا يذكر شيئا عن المدارس سوى انه "قرأ عند رشدان" ورشدان كان معلما ابرصا يضرب الأولاد. "كنا نأخذ له القضبان ونسمِّع عنده". يقول العجوز ثم يتابع: "لا بارك الله في خلقته فهو لم يكن يضربنا واحدا واحدا بل كان يجمعنا في زاوية الغرفة لينهال علينا بعصاه دفعة واحدة. مرة سمعت عنده فطلب الي الوقوف في الزاوية مع الآخرين عندها عرفت ما ينتظرني من بئس المصير فغافلته وهربت من الغرفة راكضا بأقصى سرعة غير ملتفت إلى الخلف". وفي المساء اخبر الصبي والده بما حصل فسُوِيَت المسألة بأن يترك المدرسة ويذهب مع ابيه إلى العمل في الحقل وعندما اتى رشدان بعد ايام معاتبا الاب على عدم ذهاب ابنه إلى الصف طرد من المنزل شر طردة بعد ان سمع من السباب والشتائم ما يكفيه ويفيض عنه.

اما احدهم وقد كان شيخا للشباب في القرية، فيفخر بأن المعلم كان يعطيه العصا ليضرب له الأولاد كبارا كانوا ام صغارا وقد خصه معلمه بهذه الوظيفة الخاصة الحساسة لانه كان التلميذ الاقوى والافطن بين اقرانه وهو لم يهجر العلم الا بسبب المجاعة الكبرى التي حلت بجبل لبنان ابان الحرب العالمية الأولى عندها شُلت الحياة العامة تماما في القرى فأقفلت المدارس وشُردت غالبية السكان حيث لجأ من نجا من براثن الموت إلى اماكن عديدة طلبا للقوت والعمل والمأوى.

يومها غزى الجراد جميع الحقول فأكل الأخضر واليابس فلم يسلم منه عرق ولا برعم حلّت نكبة كبيرة في البلاد لم يبق زرع ولا غلال خربت البيوت العامرة. نهبت المنازل بعد رحيل الاهالي وتكدس القتلى على جوانب الطرقات في الوديان وفي البراري تعطلت دورة الحياة الطبيعية. الجوع لم يرحم أحدا قلائل هم الذين بقوا في قراهم ولم يتعرضوا له. الذكريات عن تلك الأيام كلها مؤلمة لا تحمل في طياتها سوى المآسي فقد كان القمح يهرب على ظهور البغال تهريبا إلى القرى حيث غلا ثمنه فأصبح الرطل منه بقطعة ارض اما رطل الشعير فارخص بقليل مسحة من الكآبة تعلو وجه العجوز وهي تتذكر تلك الأيام:" يا لطيف انه الجوع. جيلنا نحن ذاق تلك اللوعة لم يسلم بيت في الضيعة من فقدان أحد أو بعض ابنائه الناس اليوم يعيشون في نعمة لا يقدرونها"...

ليال عديدة رقدنا، اخوتي وأنا، على بطون خاوية امام اعين أمّي وجدي الذي كان طاعنا في السن، عاجزا، ملازما لفراشه. اما أبي فقد كان مهاجرا في البرازيل. انقطعت اخباره

عنا بعد اشتعال الحرب الكبرى. وقد ضاق بنا الحال إلى اقصى درجة، بعد ان اتى الجراد واكل الموسم.

في يوم اذكره جيدا علا صراخنا. كنا صغارا. ولا بد للصغار من الاكل. بيتنا كان خاليا تماما من كل أنواع الطعام. بكت أمّي لبكائنا، ثم ارسلتني بعينيَّ الدامعتين إلى أحد الجيران وقد كان يعمل "مكاري" فيهرِّب القمح والشعير على ظهر دابته من حوران إلى القرية ليبيعه. عندما رأى ذلك الرجل حالي، حنَّ قلبه واشفق عليَّ. صاح بأمرأته وامرها بأن تطعمني. اكلت الطعام بشراهة ما بعدها شراهة! ذلك الطبق لن انساه ما حُييت. وقد تألَّف من طحين الشعير المطبوخ بالماء والملح. وقد كان طعم الملح مرّاً مثل الصَّبر!

أقرضني ذلك الرجل رغيفين من الخبز ليقتات بهم اخوتي. رحمه الله كم كان صاحب مروءة ونخوة، فقلائل هم الذين كانوا يضحّون بخبزهم دون مقابل. لم يمرّ زمن طويل على تلك الحادثة حتى توفي جدي العجوز. فعزمت أمّي على الرحيل بنا إلى حوران حيث العمل متوفر والغلال كثيرة. وكان اكثر من نصف سكان القرية قد سبقونا إلى هناك. لذا، حملت سجادة كنا نمتلكها و"بلاس" مجدول من شعر الماعز كنا نفرشه ارضا إلى أحد التجار. فأعطاها مقابلا لهم بضع كمشات من طحين الشعير. عجنتهم بالماء وقطّعت العجين على شكل كرات صغيرة جففتها ثم رتبتها في صرّة من قماش زوّادة لطريقنا. حيث كان الذي يجوع منا يضع في فمه إحدى كرات العجين الجامد، يمتصّها ببطء شديد ليسدّ رمقه!

رحلة العذاب تلك من قريتنا إلى حوران، لن أنساها ما حييت. كنا حفاة. ثلاثة أطفال مع أمنا. حملنا معنا كل ما كنا نملك من حطام الدنيا. طنجرة ومعجن من نحاس، بالإضافة إلى فراشين ولحافين. مشينا خلف قافلة من المكارية، حتى وصلنا إلى قرية المريجات في البقاع. على احد طرقاتها، كان يوجد خان بتنا فيه ليلتنا. خفنا السير ليلا، "فالكسارة" بالمرصاد. يربطون الطرقات ويسرقون الحوائج ويقتلون عبيد الله...

ذلك الخان، ما كان سوى غرفة كبيرة فسيحة الأرجاء. حوت الاوادم والبهائم معا. حيث افترشنا الأرض. رجل كان يحمل معه كيسا من التبن سوّى منه فراشا. آخر كان معه كيسا من الخيش تغطّى به. أما أمّي ، فلقد فرشت لنا فراشا نمنا عليه. وغطّت اجسادنا الصغيرة بلحاف كانت تحمله.

في الصباح الباكر واصلنا الطريق الطويلة الوعرة. لم يقدر جميع افراد تلك القافلة على اكمالها. فبعضهم قد مات معنا على الدرب. مررنا في وادي القرن. هناك، اذكر جيدا ذلك المنظر المروع الذي رأيته فانطبع في ذهني. جثة امرأة كانت مرمية في احد الجوانب. على صدرها، جثة طفل مات بينما كان يحاول الرضاعة من ثديها. حولها، تناثرت جثث الباقين من اولادها...

بعد جهد جهيد، وصلنا إلى حوران. في احدى القرى، نزلنا في مكان يدعى "المضافة"، كان مخصصا للقادمين من جبل لبنان. حيث قدم إلينا الطعام. فأكلنا ما أشبعنا ونمنا نوما عميقا. صحونا، فوجدنا بعض أقربائنا الذين كانوا قد سبقونا إلى هناك متحلقين حولنا. وكانوا قد تدبروا لأنفسهم أعمالا في الحقول المنتشرة. وسكنا في غرف متواضعة. ذهبنا برفقتهم... وبعد فترة وجيزة، تدبرت أمّي لنفسها عملا في أحد البيوت الكبيرة. وسكنا في إحدى الغرف الملحقة به. مر وقت طويل قبل عودتنا إلى القرية...

قصّة أخرى عن المعاناة خلال تلك الفترة العصيبة والرّهيبة تقول:" جاء الجراد إلى القرية على شكل غيمة سوداء كبيرة، حجب نور الشّمس، وأكل كلّ شيء... حلّ الجوع بالنّاس. وحلّ بهم البؤس. عندما أوشكت المؤونة في بيتنا على الانتهاء، ذهب والدي إلى مدينة صيدا السّاحلية. فباع بعض مقتنيات منزلنا. واشترى بثمنها ربع قنطار من العدس. ثم اتّفق وأمّي على أن يرحل مصطحبا معه شقيقي وشقيقتي إلى حوران. بينما تبقى هي في البيت كي لا يُنهَب. بقيت معها لأنّي كنت الأصغر سنّا... أذكر اننا أكلنا العدس لفترة طويلة جدا، فرجها الله بعدها على عباده. ألف شكر وحمد له عزّ وجلّ، لأنّي لم انم ليلة واحدة بلا عشاء. ياما بحث النّاس عن القوت في

المزابل! بعضهم كان يُنَقِّب في روث الدّواب علّه يجد حبّة شعير لم تهضمها معدة الحيوان ليضعها في فمه...
في أحد الأيّام، أذكر أنّ رجلا طرق باب بيتنا. وطلب من أمّي أن تقرضه سكّينا أو فأس. كي يقطع بواسطته رأس حمار ميت وجده. فيسدّ جوعه بما قد يجده في داخله!
أهالي القرى المجاورة، كانوا يأتون بمحتويات منازلهم من قدور وجرار وشراشف وملاحف ومعاجن وغيرها فيبدّلها لهم المكاري بعدّة أواق من الشّعير أو القمح... قليلة جدّا هي البيوت التي لم تخرب..."
عجوز آخر قال في الموضوع:" أرزاق والدي كانت كثيرة. قطع عديدة من الأرض ورثها عن والده كانت تنتشر في مختلف انحاء خَراج الضيعة. بعد ان اكل الجراد الزّرع، اضطُرّ أبي إلى مقايضة معظم أراضيه في سبيل الحصول على طعام لنا. قطعة الأرض الواحدة، كان يأخذ مقابلا لها ثلاثة أواق من الطّحين ومثلها من اللحم... في النّهاية، اعترضت امّي بشدّة على التّفريط بتلك الارزاق. عزّ عليها ان تذهب الاملاك كلّها من يدنا. فقد حسبت حساب الدّهر. ما هان عليها أن نعود فنعمل أجراء في حقول الآخرين متى رحل الجراد، انتهت الحرب، وتحسّنت الحال. لذا، أقنعت والدي باقتناء دابّة قوية، والذهاب مع مكارية الضيعة إلى حوران في سبيل العمل. والعودة بأكياس القمح والشّعير.
هكذا كان، رحل والدي وطالت غيبته، لكنّه عاد إلينا أخيرا حاملا معه أكياس الخير. لا زلت اذكر ليالي الخوف التي قضيناها عندما كان غائبا. كم تضرّعنا إلى الله كي يعيده سالما غانما. فطريقه كانت محفوفة بالمخاطر. فالذي كان يسعى في سبيل رزقه وقوته، قلّما كان يسلم من "الكسّارة" الذين انتشروا على الطرقات. يربطونها لقوافل الرّجال والبغال، فينتزعون منهم القمح والشعير والأرواح".
حكاية "أم فهد" تأتي في هذا السّياق لتروي معاناة امرأة بذلت الكثير في سبيل المحافظة على صغارها من الموت جوعا. فزوجها كان مسافرا في أحد بلدان أميركا اللاتينية. وهي كانت تعيش متنعّمة مع أطفالها الثّلاثة في واحد من أكبر البيوت ذات السطح القرميدي. والتي ندر وجودها في تلك الأيام. لكن مع الحرب والجراد، زار الجوع عتبة ذلك البيت المترف العامر. الذي كان يرفل بالبحبوحة قبل وقوع الكارثة.
أبت أم فهد أن تستسلم للجوع والعوز. وعقدت العزم على المضيّ بأطفالها إلى قرية "طلية" البقاعية. وحيدة سارت بهم في صبيحة يوم من الأيام، حيث اضطرت أن تقطع مسافة طريقها مضاعفة. فقد كان عليها أن تحمل بقجة كبيرة من الحوائج. تنقلها مسافة. تضعها أرضا. ثم تعود فتحمل ابنها الصغير الذي لا يقوى على السير. فتحمله إلى حيث البقجة. تضعه أرضا، لتسير بحملها الآخر من جديد. هكذا دواليك، حتى وصلت إلى "طلية".
في البقاع، عملت ام فهد ليل نهار. بلا كلل، كانت تلتقط سنابل القمح التي لم تطالها مناجل الحصادين. والحبوب المتناثرة على الأرض في الحقول المحصودة حديثا. فتطعم الصغار وتأكل. في الاماسي، كانت تحيك الصوف الذي يغزله صغارها بواسطة المغازل اليدوية. مع مرور الوقت طورت المرأة عملها. فاشتغلت بالتجارة. تحوجت الامشاط والمناديل والدبابيس والتبغ وغيرها بالجملة. حملتها وسارت متنقلة بها بين القرى والبيوت. فباعتها للنساء والرجال. وقد عرفها البقاعيون "بالجبلية". وكنوا لها كل احترام وتقدير. خاصة بعد ان علموا انها كانت ابنة عزّ ودلال. فلقد عرفها احدهم، واخبر قومه بأن تلك الجبلية البياعة، كانت تسكن في اكبر البيوت واغناها على الاطلاق.
من خلال عملها تعرفت الجبلية إلى "ملحم قاسم" الذي كان مجرد ذكر اسمه يزرع الهلع في القلوب. فالرجل كان مغضوبا عليه من جانب الدولة العلية. له جماعته الخاصة يرأسها ويتزعمها. فلا يرفض رجل من الرجال طلبه. اما داره فكانت عامرة يتمتع كل من فيها باليسر والجاه. أراد الرجل تزويج ولديه في ليلة واحدة. فما رضي إلا بالجبلية "بارزة" تزين العروستين وتبرجهما. ابنتها تذكر بأن والدتها تفننت في تذويق الحسناوتين. فجاء عملها حسنا واعجب ملحم قاسم كثيرا

فأكرمها. ولم يقبل أبدا بأن تغيب عن المشاركة في الفرح الذي استمر أياما عدة. فاستجابت لدعوته شاكرة له كرمه. وابنتها تذكر أيضا، انهم تناولوا الأرز المطبوخ مع لحم الخراف. وهو الطبق الذي قدم لكل من شارك الرجل المقتدر فرحته بعرس ولديه. ومن كان ليستطيع الحصول على الأرز وطبخه بكميات كبيرة في تلك الأيام غير ملحم قاسم الفاحش الثراء؟؟!
سنوات عدة مضت على أم فهد قبل أن تستطيع العودة إلى بيتها في القرية. ولما عادت، وجدت البيت خاليا من جميع محتوياته. حتى خشب النوافذ لم يسلم من أيدي اللصوص... صبرت المرأة على دهرها... خاصة وان زوجها المهاجر لم يرجع من غربته أبدا، بعد أن خسر في تجارته.
عجوز كان والدها ملاّكا كبيرا لعدد من قطع الأرض الزراعيّة ولقطعان من الماعز والأغنام.
أكدت ان عائلتها لم تضطر إلى الجلاء عن القرية أبدا في تلك الفترة. لكن والدها اضطر إلى بيع معظم مقتنياته من الأرزاق والماشية في سبيل تأمين القوت لعياله.
عجوز تاه عن باله العدد الدقيق للمرات التي قطعها مشيا على قدميه من البقاع إلى المتن الشمالي وبالعكس. فقد كان مضطرا إلى جلب القمح لأمه واخوته الذين ما رحلوا عن منزلهم. بينما انتقل هو برفقة والده إلى العمل في حقول الميسورين من سكان سهل البقاع.
اما آخر الذكريات عن المحنة التي حلّت بالسكان إبان عام 1914 فتقول:" اضطررنا للنزوح عن القرية إلى البقاع. صغارا كنا، ومع ذلك، سرنا مشيا على الأقدام المسافة كلها. مرارا وضعنا أكفنا على أعيننا كي لا نرى ولا نشاهد الجثث المكدسة المتعفنة على جانبي الطريق.
هناك قمنا بكل أنواع الأعمال المتوفرة. بعضنا اشتغل في الزراعة. بعضنا الآخر في رعي الماشية. أو في الخدمة في البيوت. اما أنا، وقد كنت الأصغر سنا، فقد كنت أملأ الجرار من العين لنساء القرية حينا. وأسرح بجمل كان يملكه صاحب الدار التي سكنا غرفة منها حينا آخر. مرة خطر لي أن أركب ذلك الجمل. فانتظرته حتى ركع واعتليت ظهره. هب مذعورا، وأخذ يركض بي على غير هدى.
فزعت فزعا شديدا وتمسكت بسنامه جيدا كي لا أقع أرضا. صراخي جمع حولي الذين كانوا على مقربة من المكان. محاولات البعض لإيقاف الجمل عن الركض جاءت فاشلة. مما جعلني أحس بدنو الأجل!
أخيرا، أتى بعض الشبان الأقوياء بحبل طويل عقدوا طرفه. ثم رموا به ناحية الجمل. نجحوا بإدخال طرفه المربوط في عنق الحيوان الهائج. فقاموا بلجمه رويدا رويدا. عندما أنزلوني عن ظهره وقعت مغشيا علي... اسابيع مضت، قبل ان استعيد شجاعتي واسرح به من جديد."
بعد انتهاء الحرب ورحيل الجراد نهائيا عن الجبل، عاد من نجا من الأهلين إلى قراهم يجددون بيوتهم الخربة فيها. ويبدءون دورة حياتهم البسيطة ثانية. هنا، تعود الذكريات لتصبح أشد متعة وأكثر حلاوة، خاصة بعد دخول صغار هذا الفصل من الكتاب، في سن المراهقة والشباب.
وانخراطهم اكثر واكثر في الأعمال على شتى أنواعها. فالذكريات تتسلسل لتقودنا إلى التحدث عن طبيعة الأعمال في القرية وتعدادها والغوص في جوانبها الإنسانية. والى سرد تفاصيل المواسم العديدة التي اعتمدت عليها معيشة القروي بشكل أساسي. فاستمرار الحياة تطلب جهدا بذله إنسان القرية بسخاء. فأورث أبناءه وأحفاده ما استطاع أن يورثهم.

الفصل الثّاني: الأعمال والمواسم

أعمال القرويين، مع تعددها بقيت محصورة ضمن نطاق احتياجات مجتمعهم الضيق البسيط. فكان بينهم الفلاح الذي كوّن مع أفراد عائلته خليّة عمل متكاملة. والمكاري الذي جاب القرى والمناطق محمّلا دابته بشتى المنتوجات والأصناف. والبيطار الذي دقّ المسامير في نعال البهائم. والمعّاز الذي رعى قطعانه على قمم الجبال صيفاً وفي السواحل شتاءً. والناطور الذي منع سرقة الكروم والمواسم الزراعية. والقنواتي أو ناطور الماء الذي نظم الأدوار بين الناس في عملية ريّ المزروعات، فقلّل من وقوع المشاكل بينهم قدر استطاعته. والطحّان الذي أدار طاحونه على ضغط المياه الشتوية فحوّل القمح إلى دقيق. وصاحب معصرة الكرم الذي أجّر معصرته لأصحاب العنب. فحوّلوا عصير تلك الفاكهة إلى دبس معقود لذيذ الطّعم. وصاحب معمل الحرير أو "الكِرْخانة" الذي شغّل فيها عددا لا بأس به من الصّبايا والشّباب. والكلاّس الذي أجج نار آتونه فشوى الحجارة وموّن القرية كلسا ابيضا. والمشحرجي الذي وضّب أغصان الأشجار عيدانا رفيعة من الحطب. شواها بحسب ترتيبا معينا فأصبحت فحما جاهزا للاستعمال. والنّشار الذي صنع من جذوع الأشجار أعمدة ضخمة سمّاها "قلدا". استعملها المعمرجي في بناء أسقف بيوت القرميد. والحدّاد الذي صنع مختلف الأدوات. والزيّات الذي جال بزيته الحلو وباعه في مختلف القرى العالية التي لا يعيش فيها شجر الزيتون الساحلي. والحلاّق أو "الشّلبي" كما كانوا يسمونه. حيث شمل عمله "شلبنة" الرجال فقط. فالتزيين النسائي لم يكن دارجا في تلك الأيام. حينها، كانت المرأة تترك شعرها ليطول، فتجدله ضفائر مرسلة على الأكتاف. أمّا السّكاف فكان عليه صناعة الأحذية والقباقيب. والطبيب العربي المتمرّس الضالع بمعرفة شتى أنواع الأعشاب وفوائدها. فبالأعشاب كانت تداوى أمراض القرويين وعللهم. فلقد وصفها معالجا أمراض القرويين مداويا عللهم. والمعلّم الشاطر المتسلّط كانت له إدارة مدرسة القرية. اما عالم الغيب الذي لا يفوته شيء من الإدراك والدّراية، فقد تعاطى التبصير والتنجيم وعلم الفلك. وقصده الناس من كل حدب وصوب لحلّ مختلف شؤونهم الخاصة. فأعطاهم الحجابات والرقوات والحروز التي وَقَتهم شرّ العين الصائبة ونكبات الزمان. كما فقه العالم بالغيب أسرار وأصول استخراج الكنوز المرصودة. فجمع حوله أشدّ الشباب بأسا لينقّب بحثا عن الثروات الطائلة المطمورة. والبائع المتجوّل (الدوّار) الذي زار القرية بشكل دوري عارضا بضاعته على النساء في الساحة. ذلك قبل أن يصبح في القرية سوق ودكاكين. والمهاجر الذي مخر عباب البحر قاصدا العوالم والأماكن البعيدة في سبيل تحسين وضعه المعيشي. لكن الغربة ابتلعت الكثيرين من الذين رحلوا فاستوطنوا البلاد التي حلوا بها. ولم تعد سماء قراهم تعلو فوق رؤوسهم مرة أخرى.

****

عائلة الفلاح، كانت تصحو مع فجر كل يوم، ليبدأ عمل كل فرد فيها. فلا ينتهي إلاّ مع غروب كلّ شمس. فقد كانت الزّريبة تضمّ الكثير من البهائم. من بقر لحراثة الأرض يُستَفاد أيضا من حليبها إلى الخراف التي تُرَبّى وتُعَلَّف لتُذبَح ويُوَضَّب شحمها ولحمها مؤناً (القَورما). فدابّة أو أكثر تُنقَل عليها الغِلال. وطيور من الدّجاج يؤكل بيضها ولحمها. وقد كان الفلاح يفيد من روث بهائمه كافة، فيستعمله سمادا لزرعه.

لذا، كان على أفراد العائلة تأمين كميات كبيرة من الحشائش البرّية. يجلبونها من الحقول والبراري بشكل يومي. فيطعمون بعضها أخضراً طازجاً لبهائمهم. ويُقَدِّدون (يجففون) البعض الآخر قوتاً لتلك البهائم في فصل الشتاء. تلك، كانت مُهمَّة رئيسيّة لصغار البيت. اما المرأة، فقد كانت أولى واجبات نهارها، هي الاهتمام بإطعام الخروف المُعَلَّف. فكل عائلة في القرية كانت تعلف خروفاً أو أكثر. تشتريه مع حلول شهر نوّار، أي أيّار، من كلّ عام. لتذبحه مع حلول أشهر

التشارين (تشرين أوّل وتشرين الثّاني). بعد أن يكون قد سمن بقدر المستطاع. إحدى العجائز تروي لنا حكاية الخروف، فتقول: " ياه! كم كانت أيام تعب تلك يا ابنتي... لم نكن كسالى مثل جيل هذه الأيام الذي ينام فيشبع نوماً. كانت المرأة منّا تَغدو قُبَيلَ الفجر كي تُطعِم الخروف وجبته الصّباحيّة بيدها. فتُلَقِّمه ورقة توتٍ خضراء بعد أن تحشيها جيداً بالجِزّة المجبولة بنخالة الطّحين. فالجِزَّة تلك، كانت أفخر طعامٍ للبهائم، وهي تتألَّف من بقايا ورق التّوت اليابس المهروم ناعماً والمخلوط ببراز دود القزّ. فإنها تدفع بالحيوان إلى الشرب بنهم. فتتحوّل كثرة الماء مع عُصارة الجِزَّة إلى شحم ولحم. إطعام الخروف كان يأخذ من وقت كلٍّ منّا، ساعة عند الفجر، ومثلها عند الظُّهر وكذلك عند المغرب. وطعامه كان يُحَضَّر سلفاً ويُضَع في "مُزَنَّرات" أي سلالا كبيرةً من القصب.

فجر كلّ يوم، بعد أن يشبع الخروف، كانت المرأة تُنَظِّف مكانه "بالمِشباطة"، وهي مكنسة خاصة من القَش. ثم تقوده إلى العين فتغسل جلده تحت مِزرابها. لتعود به وتربطه في مكانه، فيجلس بكسل مجترّاً ما أكل. والخروف الذي "يقبل العلوفة" جيِّداً، كان وزنه يصل إلى ثلاثين رطلاً "اسطمبوليّاً" أو أكثر. أذكر في إحدى السّنوات بأنّ رجلاً من سكّان قرية مجاورة أتى بقطيع من الأغنام البقاعيّة (نسبة إلى منطقة البقاع) الحمراء "المور" ليبيعها في المنطقة. اشترى والدي من ذلك التّاجر خروفاً نقده ثمنه خمس ليرات ورق. فإذا به خروفاً مجنوناً مُشاكِساً وعنيداً، ينطح كلَّ من يحاول الاقتراب منه. تلبّكت العائلة به كثيراً. ممّا حمل والدي على الذّهاب ثانية إلى ذلك التّاجر محاولاً إعادة الخروف واسترجاع ماله.

أقنع الرّجل والدي بأنّ الخروف "مستغرباً". وبأنَّ حاله سيتحسّن بعد أن يتعوّد على رؤية وجوهنا. ذلك بعد أن أرجع له نصف ليرة من الثّمن الذي كان قد تقاضاه. في تلك الأيّام، كان للنّصف ليرة "ذقناً" ممّا أقنع والدي بصحة كلام ذلك التّاجر الشاطر وصواب رأيه. لكن الأيام مرّت، والخروف لا زال على حاله من صعوبة المراس والجنون ممّا أدخل الهمّ والكَدَر إلى قلوبنا جميعاً. فإن لم نتمكّن من إطعامه "وعلفه"، سيبقى ضعيفاً ولن نشبع من لحمه في السّنة القادمة. لكنّ والدي الفَطِن، وبعد تفكير عميق، توصّل إلى حلٍّ مناسبٍ. فقد كان لِشُرفة منزلنا درابزون حديدي. قضبانه مصفوفة الواحد تلو الآخر على مسافةٍ متقاربة. قطع والدي إحداها. ممّا أفسح المجال لإدخال رأس الخروف بينها، وإحكام وثاقه. فاستطعنا إطعامه رغماً عن أنفه بفضل تلك العمليّة. "فقبِل علوفته" بشكلٍ لا يُوصَف.أذكر انه عندما ذبحناه في "التشارين"، كان وزنه قد أصبح إحدى وثلاثون رطلاً "اسطمبولياً". من بطنه فقط، اقتطعنا خمسة كيلوغرامات كاملة من الشّحم. أذبناها على النار في "دست" (طنجرة كبيرة من النّحاس) صغير وعبّأناها في "مسمنة" (وعاء من الفخّار)، واستعملناها فيما بعد لقلاية البطاطا وغيرها. اما دهن الإلية، فبعد فرمه، أضفنا إليه قطع اللحم الأحمر والملح. وضعناه في حلّة كبيرة على النار. فصنعنا منه سعة خمسة "مسامن" فخاريّة كبيرة من "القَوَرما". طيّنا أفواه "المسامن" كي لا يدخلها الهواء فيفسد محتواها. واستعملنا "القَوَرما" على مدار أيام السنة في تحضير شتى أنواع الطعام.

بارك الله فيه ذلك الخروف! لحمته الطّرية، قطعنا منها ستّة دقّات من الكبّة. كلّ دقّة تألّفت من قطعة لحم كبيرة. رشّيناها بالملح والفلفل، غطّيناها بقطعة من قماش ابيض نظيف، ووضعناها في سلّة من قصب علّقناها في سقف العلّية. عند تحضير الكبّة، كنّا ندقّ اللحمة في جرن من الحجر المنحوت حتى تنعم. ثمّ نضيف اليها البرغل النّاعم والبصل والحبق والمردكوش والمُطَيّبات. بعضها كان يُقَرَّص ويُقلى بالشّحم، وبعضها الآخر كان يُؤكل نيّئاً.

هيهات على نهار ذبح الخروف! في ذلك اليوم كانت فرحة الأولاد كبيرة. لأنّهم كانوا يأكلون البرغل الخشن مطبوخاً باللحم الطّازج. هذه الأكلة كانت تُحَضَّر مرّةً واحدةً في السّنة، وكانت من أفخر أنواع الطّعام على الإطلاق. فاللّحم الطّازج لم يكن متوفّراً في كلّ يوم. حوانيت القصّابين لم تكن منتشرة في القرى كما هي الحال اليوم. أمّا في النّهار الذي يتلو ذبح الخروف فكنّا نسلق القمح المقشور مع مرق العِظام وقطع اللّحم فنأكل "الهريسة" التي كنّا نشتهي طعمها ورائحتها من العام إلى العام. اليوم، يا للنّعمة ويا للترف! فالهريسة تُطْبَخ في أيّ وقت! كم تغيّرت الأيّام

على زماننا! يا للعجب كيف تنوّعت أصناف الطّعام، وكيف تبدّلت طُرُق إعدادها! حتّى الأسلوب في تناوُل الطّعام تغيّر وتبدّل! ما كان عِندنا صِحاف ولا ملاعِق ولا شوَك! كانت العائلة كلّها تتربّع على الأرض، متحلّقة حول "طبق" من القشّ. عليه "مِقْلٍ" به "طبيخ" و "طاسٍ" به دِبس، آخر به لبن رائب، آخر به لبنة أو جبن وآخر به تين مطبوخ بالدّبس أو معقود بالسكّر. فيغمِس الجميع خبزهم من الطّبق، شاكرين المولى على النّعمة. اليوم! بطر ما بعده بطر! لا يشرب الولد الصّغير من كوبٍ شرب فيه أخيه! كم تغيّرت طباع الخلق؟! قبلاً، كانت جرّة الماء تُغَطّى بطاسةٍ من نحاس، يشرب منها كلّ غريب وقريب... وان بقى في الطّاسة ماء بعد ان يروي العطشان غليله، يُعاد إلى الجرّة كي تُغَطّى فوهتها بالطّاسة عينها ثانيةً. كانت "مَنَافِس" النّاس صغيرة وأخلاقهم عالية!
هيهات يا ابنتي!! كم كان البال مرتاحاً مع أن أيامنا كانت كلها تعب وشقاء..."

تربية دود القَز

" آهٍ كم كنّا نكدّ ونجتهد، فقد كان على المرأة منّا أن تهتمّ أيضاً بتحضير طعام دود القزّ المبارك الذي كان يعطي مواسم خير وجنى، بعد أن نقطف منه شرانق حرير نبيعها لأصحاب " الكرخانات". موسم القزّ هذا كان يبدأ مع حلول شهر " نوّار" أي أيّار ليستمرّ خمسة أسابيع، تبدأ حين كان يقصد القرية رجل نسمّيه " البزّار" قادما من السّاحل على ظهر حماره، حاملاً معه يرقات الدّود التي يكون قد "فقّسها" من بيوضها حديثاً.
كلّ بيت كان يشتري الكمّية التي يريد، دَيْناً، يسدّه للرّجل بعد بيع الموسم. اليرقات الصّغيرة كانت تبقى لعشرة أيّام في مكان خاص في القرية يدعى "المَنْحَل". "والمَنْحَل" كان صاحبه يحرص على إبقاء الحرارة فيه عالية فيوقد ناراً تُدْفئ المكان كي لا "تَسْقَع" الديدان الصّغيرة، فتموت من البَرد. لذا كان على المرأة منّا، خلال هذه الفترة، أن تحمل سلّة فيها ورق التّوت الأخضر "المهروم هَرْماً" رفيعا ناعماً، ثلاث مرّات في اليوم الواحد كي تُطْعِم الدّيدان الشّرهة فتنمو وتكبر. ونتمكّن من نقلها إلى البيت فنضعها على " أطباق" واسعة من القصب في أحد الأركان.
صاحب "المَنْحَل" قلّما كان يتقاضى أجر "منحله" مالاً، بل انه كان يفضّل الاحتفاظ بما ينتج عن الديدان من "جِزّة" ليستعملها علفاً لأبقاره وماشيته.
بعد نقل الدّيدان إلى المنزل، كانت العائلة كلّها تنهمك بالعناية بها، فالغذاء الجيّد وحده كان كفيلاً بأن يؤمّن قدرة الدّود على إفراز خيوط حرير حسنة النّوعيّة. عندما كان يصل إلى مرحلة نسج الشّرنقة البيضاء أو الصّفراء حول نفسه. والدّود كان يصوم عن الطعام أربع مرّات بين بداية الموسم ونهايته. بعد كلّ صيام يعود فيأكل كمّيات من ورق التّوت الذي كان "يُهْرَم" في البداية، ليُتْرَك على حاله عندما تكبر الدّودة. وتصبح قادرة على "هَرْمه" بنفسها. بعد الصّيام الرّابع، أي حوالي منتصف شهر حزيران، كانت الديدان الكبيرة البيضاء "تُشَيَّح" حين يؤتى بنبات الشّيح والوزّال فيُرَتَّب على صقائل وتصعد إليه الدّيدان لتنسج الحرير خيوطاً حول نفسها.
بعد اكتمال تكوين الشّرانق، كانت العائلة تقوم بقطفها عن الشّيح لتُباع إلى أصحاب معامل الحرير (الكرخانات) التي كانت منتشرة بكثرة في قرى جبل لبنان، فيقوم العمّال والعاملات بتحويل الشّرانق إلى خيوط متينة لامعة غالية الثّمن بواسطة الآلة البخارية البدائيّة.
موسم الشّرانق كان اعتماد العائلة عليه أساسيّاً، فلقد شكّل بيعه مدخولاً رئيسيّاً. فكانت "الكِسْوَة" على الموسم، إيفاء ضرائب الحكومة على الموسم، تسديد الدّيون على الموسم، الاحتفال بمراسيم الزّواج على الموسم،... إلى ما هنالك من مصاريف وكلفة عَيش. فإذا جاء الموسم جيّدا جرت الاحتفالات به، وأكل الجميع حلاوة طحينيّة يشتريها الفلاّح للمناسبة السّعيدة، أمّا إذا جاء الموسم رديئا حلّت النكبة بالكبار والصّغار.
اذكر في إحدى السنوات إننا اشترينا من "البزّار" علبتين من اليرقات الصّغيرة، لم نقو على الاهتمام بها كلّها، فرمينا بنصفها في "هيشَة علّيق" بالقرب من البيت. وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما فوجئنا في نهاية الموسم بالشّرانق متناثرة فوق أغصان "الهيشة". قطفناها وبعناها إلى

صاحب "الكِرْخانة". تلك السّنة تبحبحت العائلة كثيراً. فاقتنى والدي دابّة جديدة بما فاض عن مصروف البيت من مال.
في "الكِرْخانة" أي معمل الحرير، كانت الشّرانق تُسْلَق كي تموت الفراشات النّائمة في داخلها. فلا تخرج لتضع بيضها، مما يُتْلِف الشّرنقة فلا تعود صالحة لاستخراج الحرير منها. والفراشات الميّتة كانت تُدْعى "زيزان" وكان لها رائحة كريهة ميّزت كلّ من كان يعمل في "الكِرْخانة". حيث كانت تلك الرائحة تفوح عن بُعد كلّما مرّت العاملات على الطّريق. والفلاح كان يستفيد من "الزيزان" ويستخدمها سماداً لمزروعاته.
سلق الشّرانق كان يتمّ في "خلاقين" وهي أواني خاصّة من الفخّار، تلك الأواني تصلها أنابيب معدنيّة بمرجلٍ ضخمٍ موضعه خارج "الكِرْخانة" يدعى "بابور". كانت النّار توقَد تحته باستمرار ليحافظ على درجة غليان المياه في داخله. فتذهب إلى "الخلاقين" بحرارة عالية. أمام م كلّ "خَلقين" كانت تجلس عاملة بجانبها وعاء من الماء يدعى "كَوْلَكْ". تغطّس يدها فيه أوّلاً، ثمّ تمدّها إلى "الخلقين" فتسحب منه شرانق. تنسل منها خيوطاً تُطعمها لآلة اسمها "العَمَّالة" تقوم بسحب الخيوط إلى دواليب تلفّها شِللاً، وللدواليب "عقارب" يبرمها باستمرار ورتابة عمّال من شبّان القرية الأقوياء والمفتولي العضلات.
خلال فترة العمل تلك، كان "النّاظر" يتمشّى جيئةً وذهاباً في ممرّ بين صفّي "الخلاقين" ليقوم بمراقبة صارمة على العاملات والعمّال كي لا يقوم أحد منهم بالغشّ فسماكة الخيط تتطلّب الدّقة. والإنتاج الجيّد تلزمه الأمانة في إطعام "العمّالات" العدد المطلوب من الشّرانق بلا زيادة أو نقصان. والعاملة التي كانت تزيد أو تنقص كان دولابها ينزل إلى "السّوق"، وهو الممرّ في وسط "الكِرْخانة". كي يرى الجميع غشّها وعدم أمانتها في العمل. ثمّ يُخصم من أجر نهارها النّصف أو أكثر. فيأتي عقابها على قدر الجرم الذي تكون قد ارتكبته. أمّا العاملة الأمينة والنّشيطة فكانت تُكافأ بسخاء أحياناً. ممّا يثير حسد زميلاتها لها. فتنشب الخلافات وتدور المشاكل.

جوّ العمل في "كِرْخانة" الحرير

عجوز تذكّرت قساوة العمل في "الكِرْخانة". فرندحت بأغنية كانت دارجة بين العاملات تنشدنها خلال الدوام، للتّعبير عن معاناتهن. والكلام يقول:

يا حِبّي ويا محبوبي ريحة تِمّك زهر الفلّ
لمّا بتجي عبالي بسكّر دولابي وبفلّ
لمّا بتجي عبالي بصير بطسّ العمّالة
حرقة بَيّ بَيّك هالكار كار جهنّم أحلالي
حرقة بَيّ بَيّك هالكار يلعن أبو هالنُّظار
بدهن سَلْقة، تْصُفّي ونار بدهن بَرْمِة تلات تشبار...

كلام الأغنية ينقل بواقعيّة وصدق جوّ العمل في "الكِرْخانة" ويصوّر العلاقة الرّديئة بين العاملات والنُّظار. فالصبيّة لا تتردّد عن إطعام العمّالة عدد من الشّرانق يفوق العدد المطلوب بكثير، إن عنّت على بالها رؤية الحبيب. كي تُنهي عملها بسرعة فتقفل دولابها وترحل للقائه بعد أن تقبض أجرة النّهار. لكنّها لا تستطيع إلى ذلك سبيلاً. فالنُّظار لها بالمرصاد. لذا، تتخيّلهم في أغنيتها شرانق بعد أن تلعن آباءهم أجمعين، فهم لا يستأهلون سوى السّلق والنّار والبرم على الدولاب علّهم يرتدعون عن مضايقة العاملات!
لكنّ النّاظر كان يغضّ الطّرف أحياناً إن أعجبته صبيّة ما. عجوز عملت لفترة طويلة كناظرة تفحص الحرير في "الكِرْخانة" تؤكّد لنا ذلك. فهي تذكر جيّداً، زميلاً لها في العمل كان ناظراً مثلها. ذلك الرّجل كان شقيق صاحب "الكِرْخانة". وكان يعشق إحدى العاملات فيتساهل معها ويزيد أجرتها في معظم الأحيان ممّا ضايق العاملات والعمّال وأثار غضب زميلته النّظرة عليه وعلى فتاته. " فأصبحت أراقبها عن بُعد كي لا تشعر بي. وفي أحد الأيّام رأيتها تُطعِم العمّالة

أكثر من المطلوب بكثير". تقول العجوز، ثمّ تُكْمِل، " سِرْتُ نحوها وأوقفتها عن العمل، أنزلت دولابها إلى السّوق فهاجمني العاشق الولهان معترضاً بشدّة رافعاً صوته في وجهي، لكن هيهات! كنت امرأة مقتدرة قوّية، شتمته ولعنت أجداده، ثمّ اشتبكت وإيّاه بالأيدي. تجمهر حولنا العمّال والعاملات محاولين الفصل بيننا، لكنّ أحداً لم يستطع أن يمنعني عن ضربه. وبينما نحن في عِزّ المعركة، وصل صاحب "الكِرْخانة" مهرولاً مستفسراً.حجَّزَ بيننا. أعاد العمّال والعاملات إلى أعمالهم. ثمّ طلبني على حدة. واستطلع منّي الخبر اليقين. رويت على مسامعه الحكاية كلّها. وهددته بترك العمل لديه إن لم يضع حدّاً لتصرّفات شقيقه المشينة المنكرة. خاف بأن يخسرني وقد كان يعتمد عليّ كلّ الاعتماد. فمن كان مثلي، ندر وجوده! استدعى صاحب "الكِرْخانة" أخاه في الحال، ليُقرّعه ويؤنّبه أمامي. ويهدّده بطرد تلك الفتاة اللّعوب من العمل بشكل نهائي. إن لم يرعوي عن شنيع فعلته! ثمّ أجبره على الاعتذار منّي علانيةً. فلم يعد ذلك العاق يجرؤ على اعتراضي في أيّ شيء. معلوم! الحق حق. فمن تخلّى عن ضميره، تخلّى الله عنه...".
قصص العشق والغرام في "كِرْخانات" الحرير عديدة لا تُحْصى. عجوز تذّكّر محبوبة له كانت تعمل في "الكِرْخانة" فابتسم قائلاً: "كان اسمها "غالي" كانت حلوة مثل القمر في ليلة تمامه. كنت أقصدها إلى مكان عملها كي أمتّع ناظرَي بحسنها وجمالها. وكنت أنظم لها "مطاليع المعنّى" متغزّلاً بحلاوتها. في أحد الأيّام حصل بيننا سوء تفاهم فهجرتني. وسبّبت لي العذاب والألم. فأنشدت فيها قائلاً

يا غالي، كنتي على دولاب العِشْق تِحلاّي
ومرّ الصّبر من يدِّك تِحَلاّي
وخبّروني عنِّك جملة صحاب"

كلام الأغنية يصف بأنّ الحسناء كانت تحلّ الغرام خيوطاً تلفّها شِللاً حول دولاب العشق. تماماً، كما كانت تحلّ الشّرانق خيوطاً يلفّها دولاب "الكِرْخانة" شلل حرير. لكن، بعد أن هجرت "غالي" حبيبها أذاقته مرّ الفراق فاستساغ طعمه. فقط لأنّ يدّ الحبيبة قدّمت له الكأس فشربه. وداوى جراح فؤاده باستطلاع أخبار حسنائه من الأصحاب.
قصّة طريفة تحكي بأنّ شاباً كان على علاقة غرام بإحدى عاملات "الكِرْخانة". فلا يكاد يمرّ يوم واحد إلاّ ويأتي كي يراها في مكان عملها. هذا ممّا أثار الحسد والضّغينة في نفوس زميلاتها. خاصّة وانّ الشّاب كان من أجمل شبّان الضّيعة وأشدّهم بأساً. وكلّ صبيّة من الصّبايا، كانت تتمنّاه لنفسها. في أحد الأيّام، طفح كيل العاملة الّتي كانت الأشدّ حسداً وغيرة من رؤية العاشق والحبيبة سويّة. فهبّت من مكانها بسرعة عندما أطلّ الشّاب برأسه من باب "الكِرْخانة" تسأله بتحدّ وسخرية عن سبب مجيئه اليوميّ الدّائم. فأجابها: "أنيّ آتي كي آخذ كميّة من "الزّيزان" سماداً لكرومي". فاتّهمته بالكذب والنّفاق. وحملت "كَوْلَك" الماء لتسقطه في رأسه. ضربها الشّاب مدافعاً عن نفسه. فعَلَت الصّيحة وانقسم العمّال إلى فئتين متعاركتين. واحدة ساندت الشّاب، وأخرى ساندت العاملة المعتدية. فدار هرج ومرج وتطايرت "الكَوَالِك" كالفراشات فوق رؤوس المتقاتلين...

مواسِم الغِلال والبيادر
في القرية قديماً، موسم القمح والبيادر كان أساسيّا ومهمّاً للفلاّح. فالقمح قوت رئيسيّ للعيال. يزرعه القروي في الحقول البعيدة والقريبة. قد كان يحرث الأرض جيّداً بمحراثٍ بدائي، يجرّه زوج من الثيران. ثمّ يبذر الحبّ. فينبت الزرع ويسمّد. تقطَع الأعشاب الضّارّة متى نبتت بينه. فترتفع السنابل خضراء أولا لتصفرّ تدريجيّاً. فتبدأ المناجل بالعمل. والسنابل بعد الحصاد، كانت تُجمَع شمائل شمائل، على امتداد الحقل طولاً وعرضاً. تُتْرَك تحت أشعّة الشّمس الحارِقة كي

تجف. ثمّ تُكَوَّم تِلالاً ذهبيّة اللون على البيادر. ثمّ تُدْرَس بواسطة نورَج يديره "فدّان" من البقر. لتعود فتُذَرّى بمِذراة فتقوم نسمات الهواء بتعريب الحَبّ عن التّبن. بعد ذلك، تُعَبّأ كلّ فئة بمفردها في أكياس من الخَيْش. وتُنْقَل الأكياس إلى البيوت على ظهور البهائم أو الأوادم.
في بيوت الفلاّحين، كان القمح كلّه يُصَوَّل ثمّ يُشَمَّس كي يجفّ تماماً. فيُنَقّى من البحص و"الزوان". ويُوَضَّب كي يُعَبّأ قسم منه في كوائر (مفردها كوارة) المؤونة. يُسْلَق تِباعاً ويؤكَل خلال أيّام السّنة. فالقمح المسلوق المُحَلّى بدبس العنب، كان طبقاً شهيّاً من الحلوى. يأكله القروي غالباً في سهريّة الشّتاء ويقدّمه لضيوفه. قسم آخر من القمح كان يُسْلَق في حلّة كبيرة فيصبح "قِلْبَة". "والقِلْبَة" كانت تُفْرَش على قطع من القماش فوق السّطوح. لتجف تحت أشعّة الشّمس. ثمّ تُجْرَش باليد على"جاروش" من الحجر. يبرمه شابّ قويّ العضلات وتُلَقِّمه فتاة صبيّة. فيتحوّل القمح المسلوق إلى برغل بعضه ناعم وبعضه خشن. أمّا قشر حبوب القمح الذي كان ينتج عن العمليّة فيُدعى "روَيْشَة" أو "نخالة". تجمعها النّسوة لتحشو بها أكياساً من القماش. تصبح وسائداً ينام عليها أهل البيت. أمّا قشّ السنابل فقد كان يُحَاك أطباقاً بعد بلّه بالماء. والأطباق أفادت العائلة كثيراً. إذ كانت تُسْتَعمَل موائد طعام، أو أوعية لتشميس شتّى أنواع المؤن...
ومن القمح كان الفلاّح يصنع النّشاء. حيث ينقع كميّة منه في الماء لمدّة معيّنة من الزّمن. يقوم بتبديل الماء خلالها باستمرار. والنّشاء يجهز، بعد أن تطفو قشور حبّات القمح على سطح الماء. عندها يكون النّشاء قد تجمّع وتماسك في القعر. فيُزال الماء عنه. ويُنْشَر في الشّمس كي يجف. ثمّ يُعَبّأ في آنية تحفظه، كي يُستَعمَل في تحضير أطباقٍ شهيّة من الحلوى فيما بعد.
أمّا طحين القمح الذي اعتمد وجود الخبز على وجوده، فقد كان من اختصاص الطحّان. فهو القادر على طحن الحبوب بواسطة طاحونة ماء يملكها أو يديرها. والطّاحونة كانت مكاناً، يلتقي فيه عامّة النّاس. فيتعارفون ويتبادلون الأخبار وهم بانتظار طحينهم. والطحّان كان خبيراً عالِماً بأحوال أهل قريته وأبناء القرى المجاورة. فهو يتلقّى الأخبار باستمرار من زوّاره الكُثُر. وقد اعتمد عمل الطحّان على نسبة هطول الأمطار. فالطّاحونة لا تدور إلاّ على قوّة ضغط الماء.
"في إحدى سنوات الشّحائح، يقول عجوز:" بخلت علينا الطّبيعة بالمطر. فتعطّلت الطّواحين وما دارت. فاضطرّ النّاس إلى طحن قمحهم على الجاروش. ممّا أنهكهم وضيّع عليهم الوقت. فرفعوا الصّلوات والابتهالات إلى الله كي يفرج ضيقهم. أمّا الطحّان في قريتنا فأنشد أغنية فاضت بها قريحته بعد انقطاع الرّزق عنه. مطلعها يقول:

في الزّمان والدّهر ما صارت
والطّاحون بكانون ما دارت..."

في بعض الأحيان كان الطّحان يوَسّع ذمّته فيسرق كميّات من الطحين لنفسه، ممّا يتسبّب في المشاكل. قصّة في الموضوع تقول: " كان في قريتنا طاحونة واحدة. يقصدها أهالي القرية جميعاً وبعض أهالي القرى المجاورة لطحن قمحهم. الأكياس الكبيرة كانت تُنْقَل على ظهور الدّواب. والكميّات الصّغيرة كانت النسوة تحملنها على الأكتاف والرؤوس. فتسير الصّبايا زرافات ووحدانا على طريق الطّاحونة المكتظّة دائماً. عمل ذلك الطّحان كان كثيراً. في معظم الأحيان كان يطلب من النّاس أن يتركوا القمح عنده، خاصّة متى كانت الكمّية كبيرة. ليرجعوا إليه بعد فترة زمنيّة يحددّها لهم، فيعطيهم الطحين. فقد كان يسهر الليالي عاملاً بمفرده في الطاحونة كي يتمكن من تلبية حاجات النّاس الملحّة. لكنّ يده الطويلة، كانت تمتد فتسرق ما تستطيعه من طحين الأهالي عند نهاية العمل في كلّ ليلة. تضايق الجميع منه كثيراً، لكنّهم كانوا بحاجةٍ ماسّةٍ إليه. فصبروا صبراً جميلاً...
في أحد الأيّام، جاء أحد الشّبان الأقوياء إلى الطحّان بكميّة كبيرة من القمح، فوعده بأن يطحن قمحه ليلاً فيسلّمه الطّحين في صباح اليوم التّالي. تضايق الشّاب ولم يؤمّن للرّجل، وفي الوقت عينه كان محتاجاً إلى الطّحين. ترك قمحه، وعاد متخفّياً تحت جنح الظّلام، ليراقب عمل الطّحان

خلسةً من كوّةٍ صغيرة في حائط الطّاحونة. فرآه بأمّ عينه، يسرق الطّحين وهو يغنّي رافعاً الصّوت "بالميجانا". بكلّ سرورٍ وانشراح صدر كان يعبّئ سرقته في كيس وهو ينشد قائلاً:

يا ميجانا ويا ميجانا ويا ميجانا
حبّي علينا، بسّ حبي متلنا!

فار دمّ الشّاب الذي كان متمنطقنا بمسدّس محشو بعيارات نارية. حمل مسدّسه وصوّبه ناحية قدمي الطّحان. وأفرغ طلقةً منتقماً لنفسه ولخلق الله. كسرت الطلقة ساق السّارق بينما كان يسرق. فتكوّم على الأرض لا يستطع الحراك. وما من أحد في الجوار ليسمع أنينه أو ليسعفه. فالشّاب قد ولّى الأدبار... وفي الصباح جاءت زوجة الطحان إليه "بالزوادة". فوجدته على حال يرثى لها. نقلته إلى "مُجَبِّرٍ" يقطن في الجوار فسوّى له الكسر. وبقي طريح الفراش لفترة طويلة من الزّمن. عاد بعده إلى نشاطه، لكنّ العرج لازمه طوال حياته. فالله حقّ وعدالة... وهو سبحانه في ملكه، لا ينزل إلى عبيده حاملاً السّوط ولا العصا. بل انّه يُسَلِّط بعضهم على البعض الآخر...

موسم الكروم

من المواسم المهمّة أيضاً، موسم الكروم، الذي شكّل إحدى أهمّ ركائز اعتماد عائلة الفلاّح. فالكروم كانت مزروعةً عنباً وتيناً. عند نضوج الثّمر في منتصف فصل الصّيف، كانت السّلال تُمْلأ وتُفْرَغ. لِتُمْلأ وتُفْرَغ من جديد. " إلى الكروم كنّا نذهب غدويّة" تقول العجوز. "فنجلب عناقيد شقراء حلوة الطّعم. وأكواز تين شهيّة. لنأكل بعضها طازجاً. ونجفّف بعضها الآخر في الشّمس. فيتحوّل إلى زبيبٍ وتينٍ مُدَحْرَج (دَحْبور). والطّريق إلى الكروم ما كانت لتخلو من النّاس والدّواب وآثار أقدامهم.

صناعة الزّبيب، كانت تستلزم منّا أن نغمر العناقيد "بالصّفْوَة. وهي الماء المنقوع فيه رماد. ثمّ نعرّضها لأشعّة الشّمس عدّة أيّام. نقوم خلالها تكراراً برشّها بماء الصّفوة. وعندما تجفّ حبّات العنب. نقطفها عن عناقيدها ونضعها في الأوعية مؤونة لأيّامنا. امّا التّين المُدَحْرَج فصناعته مماثلة. وكنّا نُعِدّ منه المُرَبّى بعد أن نغليه على نار الموقد مع الدّبس. لقمة من هذه الحلوى، تساوي عندي ما في هذه الدّنيا من شكولاته وكاتو. اليوم، لَمْ يعد مُرَبّى التّين يلبق لأحد! فالنّاس تتبع الموضة الدّارجة بشكل أعمى! فيأكلون ألواح الشكولاته التي لا تَقيت على القلب! لا أذكر انّي سمحت لأحد من أولادي بشرائها. مرّة واحدة فقط اشتلقت بأن أحد أبنائي اشترى قطعة منها. فأشبعته ضرباً. لأنّ البيت ملئ بمُرَبّى التّين وبالدّبس.

صناعة الدّبس كانت عمليّة مُتْعِبة ودقيقة. في أرجاء قريتنا انتشر عدد لا بأس به من "المعاصر". تلك "المعاصر" كانت مملوكة ولم تكن عامّة كما هي الحال في بعض القرى المجاورة. عندنا كان صاحب العنب "يربط نوبة" أي يحجز دوراً، لدى صاحب المعصرة قبل أن يقطف عنبه. عندما يحين دوره ينقل سلال العنب على ظهر دابّته إلى المكان. لتُوضَع العناقيد في مكان يُسَمّى "المَرْفَس". وتُرَشّ عليها "الحوّارة"، وهي نوع من أنواع التّربة. في "المَرْفَس" ،كان الفلاّح وأولاده "يدعسون" العنب بأقدامهم. ليخرج العصير من الحبّات الحلوة النّاضجة، وينزل من "المَرْفَس" إلى بئرٍ محفورة في الصّخر. ثمّ يُنْقَل من البئر إلى وعاءٍ كبيرٍ من النُّحاس هو "الخَلْقين". و"الخَلْقين" موضعه فوق موقد ضخم ناره قويّة. يُسْلَق فيه عصير العنب "أوّل سَلْقَة". ثمّ يُعَاد إلى البئر كي يبرد. ثمّ يُقَطَّر ويُرْجَع إلى الخلقين ثانية ليُغْلى حوالي ثماني ساعات متواصلة فيصبح دِبْساً. خلال فترة غليانه كان "يُشَلّى" باستمرار بواسطة "كفكير" ضخم يُدْعى "مِشْلاية". "والمِشْلاية" تلك، كانت تُسْتَعْمَل كسلاح في الأيدي عند حصول خلافات على المعصرة!".

وصاحب المعصرة، قلّما كان يتقاضى أجر معصرته مالاً. بل انه كان يفضّل الاحتفاظ بجزءٍ من الدِّبس. أمّا في المعاصر العامّة، فلا أجر يُدْفَع. لكن لم يكن من بدّ عن المشاكل تحصل وتتكرر في كلّ عام بين الأهالي. فالمكان مكان عام. ولا مَن يضبط الدّور بين صانعي الدّبس. لذا، فمن الطّبيعي أن يكثر العراك فيما بينهم على الأولويّة في "رَدّ العِنَب إلى المَرْفَسْ". في إحدى القرى، يحكون إنّ امرأة شنيعة الطباع، قويّة البنية، مفتولة العضلات كالرّجال، كان لها في كلّ سنة "شرّاً" على المعصرة. يحصل اثر خلافها واشتباكها مع مطلق إنسان يكون هناك عندما كانت تأتي بعنبها.

"في أحد الأيّام، كنت أدعس العنب في المرفس عندما أطلّت تلك المرأة جارّة دابّتها المُحَمَّلة...". يُحَدِّث عجوز بذكرى يحملها. وصَلَتْ فنَظَرَتْ إليَّ شَزَراً وقالت بصوتٍ عالٍ:"أُدَبِّسْ عنبي أوّلاً ثُمَّ تُدَبِّسْ عنبك!" طَلَبْتُ منها أن تَخْزي الشّيطان، وتهدأ قليلاً كي نتفاهم في الموضوع. فعنبي في "المرفس" ومن غير الممكن أن أؤجّل العمل فيه. لكنّها لم تقتنع! لوّحت بقبضتها تريد لكمي. حاولْت جاهِداً الإمساك بها لأنّي ما أرَدْت العراك مع امرأة. فهذا ليس من شِيَم الرّجال. لكنّها بَطَحَتْني أرضاً، ونَبَشَتْ قبور أسلافي لاعِنَةً إياهم أجمعين! فاضطررت إلى الدّفاع عن نفسي فردَدْت لها الكيل كيلين والصّاع صاعين... ولم ترتد تلك الشّريرة اللعينة عنّي إلاّ بعد أن تجمهر حولنا عدد لا يستهان به من الناس... تعبوا كلّ التّعب في سبيل الفصل بيننا...".

أما البعض فقد كان يقصد الشّر ويتعمّده، فيتعارك مع شخص أو أشخاص له عليهم غاية. فيأتي إلى المعصرة "مشارعا" إياهم على الدّور. ثمّ يشتبك معهم بالعصي حيناً وبالأيدي أحياناً. فتُشَجّ الرؤوس وتكبر القصة... ويتدخّل "الصُّلاّح" (المُصْلِحون) لحلّ المشاكل. إحداهنّ تروي بأنها اقترحت على أهل قريتها يوماً، بأن يعيّنوا ناطوراً يهتم بشؤون المعصرة العامة فيضبط الدّور بين أصحاب العنب. لكنّ أحداً لم يأخذ بمشورتها، واستمرّت الخلافات تتكرّر سنويّاً...

ناطور الكروم، اعتمد عليه الجميع ليحفظ أملاكهم من السّرقة. والنّاطور الشّاطر، كان يتفنّن في أساليب عمله. فيبتكر كلّ جديد كي يستطيع أن يمسك بأكبر عدد ممكن من اللصوص. عرزال الناطور كانت عواميده تنْصَبْ على صخرةٍ ملساء طويلة وعالية. فتكون حيطانه من نبات شيح ووزّال . حيث يتلطّى صاحبه عن العيون ويراقب كافّة أرزاق النّاس، مراقبةً دقيقةً ومستمرّة. عجوز عمل لفترةٍ طويلةٍ من حياته كناطورٍ، تكلّم بحماسٍ ظاهر عن طبيعة عمله ذاك فقال:" إياكِ والاعتقاد، يا صبيّة، بأنني أبالغ واعتد بنفسي إن أخبرتكِ بأنّ العصا في يدي أرجفت قلوب اللصوص جميعهم كما ترجف ورقة صفراء في مهبّ الريح العاتية! فحفظت النّظام، وارتفعت يد الحقّ فوق كلّ اعتبار آخر على أيّامي. لم اكن اقبل الرّشوة، مثل غيري من النواطير! بشدّةٍ وصرامة حافظت على الحقّ العام، فما اكتسبت سوى عداوة الأهالي وبغضهم لي! لم يعد أحد يقصد بيتي للزيارة! لم يعد أحد يلقي عليّ التحية! وقد قلّع بعض الأشرار زرعي في إحدى السنوات! لكن هيهات لي من الاستسلام والخضوع. "ربّيت القمل في رؤوسهم"! كنت اتلطّى خلف الحفافي منتظراً اللصوص الكُثُر. واللصوص عادة، ينظرون ناحية عرزال النّاطور، فإذا كان خالياً، اطمأنوا وشرعوا بالقيام بفعلهم الشّنيع. في كلّ مرّة، كنت أفاجئهم من مكان! فأمسك بهم بالجرم المشهود. لطالما قبّلوا يديّ ظاهراً وباطناً كي أعفو عنهم. لكن أبداً، كنت أجبرهم على إعادة السّرقة، ودفع الغرامة التي احدّدها...

مشاكلي الكبيرة كانت مع "المعّازة"، "فصاحب الحافر كافر! كما يقول المَثَل. لأنّه لا يتورَّع عن إفلات العنان لعنزاته، فيخربون أرزاق النّاس وكرومهم. ولمّا لم يكن هناك من سبيل لإصلاح ما تُفْسِده تلك المواشي، سِوَى بالتّعويض المادّي. فلقد كرهني معّازة المنطقة أشدّ الكره. خاصّة وإنّي

لم اكن لأقبل بهداياهم التي "يُبَرْطِلون بها الضّمائر" من جدايا، أو خراف، أو "سْطَيْلات اللبن والحليب والقَريْشة..."، التي جرت العادة بأن يوزّعوها بسخاء على النّواطير! ففي إحدى السّنوات، ثلاثة منهم أقاموا عليّ دعوى في المحكمة مدّعين بأنني اعتديت عليهم بالضّرب المُبْرَح. فأقنعت القاضي بأنّ واحداً بمفرده لا يستطيع ضرب ثلاثة مجتمعين! وان كان يحمل عصا النّاطور بيمينه. فبرّأني من التّهمة المُلَفّقة بعد أن اقتنع بصحّة كلامي...".

عجوز آخر، اشتغل في "النطارة"، وتكلّم عن تجربته التي استمرّت لعدد كبير من السّنوات. " كنت القط باللصوص فأعاملهم بالحُسنى وأحلّ الموضوع بالتّراضي بينهم وبين أصحاب الأملاك. لذا، أحبّني الجميع ولم أتسبب لنفسي بالمتاعب والعداوة. لكن في إحدى السّنوات، معّاز في قرية مجاورة أتعبني كثيراً، بعد أن تسلّط بقطيعه على أرزاق الآخرين وكان اسمه "نعمة الله". حاولت معه المستحيل، ولكن على غير فائدة... وأخيراً، طفح الكيل! فهدّدتُه بالفضيحة، ونَوَيت على تنفيذ الكلام. توّعّدْت الرّجل بأنّي سأنشر أخباره بين النّاس، إن هو لم يكِفّ عن إلحاق الأذى بالآخرين. وسأجعلهم ينادونه ب "لعنة الله" بدلاً من اسمه الحقيقي. عندها، وبعد أن "استحقّها"! وعدني وعداً قاطعاً بتحسين سلوكه وسلوك قطيعه. فعلاً، من يومها، لم اعد أشتلق عليه أبداً، بأنّه عاد إلى التطاول أو السّرقة. فالنّاطور العاقل يكون صاحب سياسة حكيمة فيكسب المحبّة والرّضا، ويَدعو له الجميع بطول العمر والسّؤدد...".

المعّاز الذي كانت النّواطير تشكو منه، كان ولا يزال من المعالم البشرية التي ميّزت القرية في جبل لبنان. وهو يقضي معظم أيامه في الطبيعة متحملا الحر والقر. مناجيا معالمها تارة وأفراد قطيعه تارة أخرى. لغة خاصة تلك التي يستعملها للتفاهم مع الماعز. فتعرف ماذا يريد سيدها وتطيع أوامره. امّا العنزة التي تشاكس وتعاند، فعقابها يأتي على قدر الخطأ الذي ترتكبه. عندما يمسك المعاز بحجر ينقفه عليها. ويسدّد الضربة بإحكام إلى مكان مؤلم في جسدها، أو إلى مكان اقل ألما! ولكل عنزة اسم يطلق عليها فهذه الغرشة، وتلك البرشة، وتلك الشقرة، وتلك الصّبحة، وتلك الغندورة... إلى ما هنالك من أسماء ينادي بها المعّاز لتلتفت إليه العنزة المطلوبة، مستجيبة للنداء ملبية للطلب. وكل قطيع له "كرّاز" يقوده. و"الكرّاز" تيس كبير فتي وقوي يدرّبه المعاز ليتكل عليه. وكلّ معّاز يملك كلبا واحدا أو أكثر لحماية القطيع من هجمات الذئاب.
في مساء كلّ يوم، يعود المعّاز من البرّية بقطيعه إلى " الصّيرة" وهي المكان المخصّص لمبيت الماعز. يدخلها هو أولا، ليجلس في مكان خصّصه لحلب العنزات. ويكون القطيع واقفا بالصّف في الخارج. كلّ عنزة تأتي بدورها إلى صاحبها. فيحلبها ثمّ تدخل بهدوء إلى "الصّيرة" لتجلس في مكانها. ينهي المعّاز حلب عنزاته، ليقوم بتحويل الحليب إلى لبن رائب، وجبن "أخضر"، وقريشة، ولبنة "مقطوعة". تُباع كلّها بسعر جيد إلى أهالي القرى الذين يتهافتون على شرائها. وكمّية إنتاج المعّاز من اللبن واللبنة أساسيّة في موسم "الكشك"، و"الكشك" مؤونة رئيسيّة للفلاح وعائلته. ربّة البيت، كانت تصنع الكمية اللازمة منه بنفسها. فتأتي ببعض "البرغل" بعد أن تشمسه جيدا. وتضعه في معجن كبير من الفخّار ثم تضيف إليه اللبن الرائب واللبنة "المقطوعة" والملح. تخلط المزيج جيدا وتغطي المعجن لفترة من الزمن تقوم بعدها بكشف الوعاء لتزيده لبنا ولبنة تعجن المحتوى جيدا بيديها ثم تغطي المعجن وتتركه يتخمّر لفترة زمنية كافية كي يكتسب نكهة كافية من الحموضة. بعدها تأتي المرأة بعجين الكشك فتقطّعه قطعا صغيرة تنشفها في الشمس. ثم تطحنها ناعما وتضعها جانبا بعد أن تصبح جاهزة للطبخ. والكشك غالبا ما كان يؤكل "كترويقة" صباحية دسمة بعد طبخه بالقاورما. فيغذّي الفلاح جيدا ويعطيه نشاطا وحيويّة تعينه على العمل الشّاق الذي كان مطلوبا منه القيام به.
أحد المعّازة، وقد ورث الكار عن أبيه، كما علّمه لاثنين من أبنائه، حدّثني فقال عاتبا على الناس بشكل عام:" سامحهم الله... فهم يقولون للذي لا يفلح في المدرسة "ذهنك غليظ! يللاه، سر وراء القطيع فأنت لا تنفع لأي شئ آخر." الناس يحسبون إن المعّاز لا يفرق عن الماعز بشيء! فنراهم

يتندّرون بتكرار المثل القديم "سريحة نهار تساوي تيسنة سنة!" لكنّهم مخطئون... المعّاز، يا آنسة، يقضي وقته متنقلا في الطبيعة الغنّاء. يعبّئ رئتيه دوما بالهواء النّقي المنعش. تبقى صحّته متينة ومزاجه صاف. يمضي المعّاز نهاره في العزف على النّاي أو المجوز أو المنجيرة. فتطلع معه ألحانا بديعة تغنّى بها الشّعراء كافّة. عجز عن ابتكار مثلها أكثر الفنّانين حساسية ورهافة."
لم يتغنّى أحد بالطبيعة، كما تغنّى بها المعّاز الذي مجّد الخالق، وسبّحه وحيدا على قمم الجبال فاستجاب الله لندائه وكفاه شرّ العوز والفاقة. لله الحمد الدائم والشّكر الدّائم فالخير لم ينقطع يوما واحدا عن بيت المعّاز فبيته يبقى مليئا بالحليب واللبن والجبن والقريشة. اما إذا احتاج مالا فبإمكانه أن يبيع رأسا من الماعز الذي يملكه أو أكثر. فيحصل بسهولة على المال. اما إذا اشتهى عياله أكلة لحم طازجة، فبإمكانه أن يذبح جديا ليأكل منه شهرا كاملا. وإنتاج المعّاز لا يكسد أبدا. حتى روث الماشية يستفيد منه فيبيعه سمادا للفلاحين، وبثمن لا بأس به.
صحيح ان عمل المعاز متعب مرهق. لكنه ممتع حقاً. فاللغة التي نكلم بها القطيع فن. وطريقة تعاملنا مع الماعز فن. والاستمتاع بالطبيعة نعمة. تجاوب معها المعاز فعزف وأجاد في العزف على القصب. ولا تسأليني كم من مرة، أغرمت صبية بلحن شجي سمعته وهي في طريقها إلى البيدر. حاملة الزوادة إلى من يعمل هناك من أهلها. هيهات... كم تغنى القدماء بمنجيرة الراعي وبألحانها السحرية...".
أما إذا تعرض المعاز لنكبة ما فالسبب الدائم يكون في انتشار مرض معدٍ يزور القطيع. فيموت الرأس تلو الرأس من الماعز. والعلاج عادة يكون بالأعشاب وبحسب خبرة الرجل أو أحد زملائه في المهنة. فالطبيب البيطري لم يكن موجوداً. وكثيرا ما قصد المعاز احد المشتغلين بأمور السحر والتنجيم حاملا إليه هدية من إنتاجه. يجلب مقابلها رقوة أو حجاب أو دعاء. يبقيه معه بشكل مستمر ليجلب له الخير فتحل البركة على القطيع. وتبعد عنه الامراض والشرور كافة.

التبصير والتنجيم

المنجم أو المبصر الذي كشف الله له سرا مقدسا في المعرفة فأصبح قادرا على قراءة علم الغيب ماضيا، حاضرا، ومستقبلا، كانت له مكانة خاصة في المجتمع القروي. بعض المبصرين ذاع صيتهم فاشتهروا، واصبح الناس يقصدونهم من قاطع إلى قاطع. بعضهم لم يكن ليرضى أبدا بالمال مقابلا لأعماله، فيقوم بما قد يفعله لوجه الله فقط وفي سبيل الخير. لكن بعضهم الآخر جمع ثروات طائلة، لأنه نال فورا وبلا نقاش، المبالغ التي طلبها لكشف الأسرار والبوح بها. وكشف المخبأ اعتمد اما على ضرب المندل أو على حساب دقيق يجريه الرجل الحاذق بعد أن يأخذ اسم الشخص المعني بالأمر واسم أمه. فكل حرف من الأحرف يحمل رقماً خاصّاً به. بعد احتساب الأرقام يتسنّى للمبصِّر معرفة برج الشخص المطلوب، والكواكب السيارة التي تتحكّم بأيامه ولياليه. فيكتب له حرزاً يحمله. أو يعطيه وصفة لنوع من أنواع البخّور ليتبخّر بها بحسب طقوس معينة في ساعة من ساعات السعد المباركة. وفي بعض الأحيان، كان المبصِّر يضطر إلى إجراء جلسة خاصة للشخص فيطرد من جسده شيطانا أو قرينا غير منظور. يكون قد تسلّط عليه سلفا فلبسه لينكّد عليه العيش. أحيانا أخرى، عندما تكون عين فارغة قد أصابت بنظرتها الناقصة شخصا ما فسوّدت أيامه، كان المبصِّر يقرأ إحدى الرقوات على بعض الماء يسقيه للمصاب فيفيده. اما إذا كانت العين الصائبة ثقيلة ونظرتها الحاسدة بائتة، فالرقوة تُقرأ على رصاصة، تُذاب على النار، وتُسكب في وعاء به ماء فوق رأس المُصاب فتظهر العين الصائبة على الرصاصة التي تأخذ شكلا معيّنا. فيرتاح المريض ويفرجها الله عليه بعد ضيق.
أحياناً، كان الأهل يقصدون المُبَصِّر كي يساعدهم في اختيار اسم ملائم لطفلهم الحديث الولادة. فالأسماء يجب أن تتلاءم مع البرج الفلكي للمولود الجديد. فيضمن له أهله مستقبلاً أكثر سعادة وراحة بال. وزيادة في الاطمئنان، كان المُبَصِّر يقرأ طالع الطفل بعد تسميته، فتهدأ نفوس والده ووالدته لكل ما قد تخبئه له الأيّام. والطّالع يتأثّر حتماً بالاسم وحروفه كما يتأثّر بساعة الولادة وتلك عمليّة دقيقة لا يفقهها إلاّ من كان يفهم بشؤون الفلك وشجون النّجوم...

أحياناً أخرى، كان شاب ما أو صبيّة ما، يقصدون المُبَصِّر كي يعمل عملاً سحري المفعول يوقع بمحبوب تمنّوا وصاله وما استجاب. مرّات كثيرة، قصدت النسوة مُبَصِّراً، كي يكتب لهنّ شيئاً من كلام الله العظيم في أوراق، يُذِبْنها في الماء ويسقينها لأزواجهن كي يكفّوا عن خيانتهن. عند حدوث سرقة ما كان الشخص المسروق يقصد المُبَصِّر كي يكتب له "ورقة حيرة" تُجبر السّارق على إعادة السرقة إلى مكانها. كذلك، فالرّجل إن منعه مانع عن القيام بواجباته الزوجية تجاه امرأته، كان يقصد المُبَصِّر فيكتب له ما "يحلّ المعقود" ويزيل الموانع...
"والأحجبة" التي يكتبها المُبَصِّر فوائدها لا تُعَدّ ولا تُحصى. لأنها شاملة جامعة تطال كل شأن قد يخطر على بال. فواحد منها يطرد الذباب والهوام والفئران عن البيت ومحيطه. وآخر يمنع الأعداء والمُبغضين عن دخول العتبة. وآخر يجعل كلمة حامله مسموعة لدى الحُكّام والأمراء متى قصدهم. وآخر يطرد الجِن المؤذي من المكان فلا يعبث به فساداً. وآخر يزرع المحبّة لحامله في قلوب كلّ مَن يراه أو يسمعه أو يسمع به. وآخر يطرح البركة في "الكوائر" فلا تفرغ منها المؤونة. وآخر يفقأ كل عين صائبة فلا تقوى على إلحاق الضرر بحامل "الحجاب". وآخر يساعد الفتاة على الزواج بسرعة، إذ يجعلها حلوة بعين كل شاب يراها "غادية" وآتية. وآخر يُبْعِد كل علّة. وآخر يمنع تساقط الشَّعر. وآخر يُرِيح البال. وآخر يجلب الحظ... إلى ما هنالك من أمور مختلفة. فقدرة "المُنجِّمين" عظيمة، كما أكّد لي الكثيرون...
لكن السحر أو التنجيم نوعان؛ أبيض وأسود. والساحر الأسود تخصّص دائماً بالأذى. فاستعان بقبائل مؤذية من الجن على جلب السوء وإلحاق الضّرر بالناس. والساحر الأسود كان دائماً يجني أرباحاً طائلة من أعماله القبيحة. فيقبض أجراً كبيراً من امرأة كانت تقصده لكتابة ما قد يُلحِق الضرر والأذية لجارة لها، تحسدها هي، إما على حبيبٍ يهواها، أو على عزٍّ تعيش فيه أو على جمال تتمتّع به، أو على نشاط تتحلّى به، أو على أطفال أصحاء أقوياء، أو على زوج مخلص، أو على حظ سعيد، تريده لنفسها فتعمل جاهدة على انتزاعه من جارتها فتحوِّش في "عِبِّها" أجرة الساحر الأسود. فتقصده مستعينة بأصدقائه من ملوك جنٍّ أشرار مستعدين دوماً للخدمة في سبيل كل ما قد يساهم في تكدير صفو العيش وتنغيصه على مطلق إنسان، صالحاً كان أم طالحاً.
روايات الجن والعفاريت والتنجيم، لنا عودة إليها في الفصل الرَّابع من هذا الكتاب. عندما نتحدَّث عن الحياة العامّة في القرية. فأيمان قدماء القرويين بها، أدخلها ضمن تراثهم.

إثنان وسبعون قبيلة للجن

وقبائل الجن اثنان وسبعون. بعضها خيِّر جداً. يحارب الشّر بلا هوادة. فلقد أسرّ إليَّ أحد المُنجِّمين بأنه طالما استعان بالشرفاء من ملوك الجن على إشفاء المرضى من كل علة! فهذا الرجل قد اشتغل في "الطب" طوال حياته. يقصده المريض، فيضرب له المندل ليُحضِر الجني القدير. فيكشف الداء ويصف الدواء. والدواء عادة يتألف من الأعشاب البرّية المتوفرة بكثرة في مختلف أنحاء جبل لبنان الغني بالخضرة وبالنبات. ذلك "الحكيم المداوي" يؤكّد انه ما عجز يوما عن تقديم العلاج الناجع. لكن الشرط الأساسي الدائم كان يتلخص بضرورة ايمان المريض بقدرة القادر. فالمريض غير المؤمن، ما استأهل أبدا حضور الجني وعناء مجهوده الخَيّر. ولحكيمنا هذا صولات وجولات في عالم الطب. فمثلا، هو يفاخر بأنه أول من اكتشف دواء ناجعا للقرحة!
والأمر بسيط، فالسر يكمن في تحميص بذور ثمار الخروب، وطحنها، ثم غليها في الماء. ليشرب منها المريض على عدة أيام. فيشفيه الله من القرحة، ونهائيا!
لكن الحكيم القروي الشاطر هذا، عاش طوال عمره في نغصة ما بعدها نغصة. فزوجته التي يحب، ما آمنت به أبدا! لذا، فقد عجز دائما عن تقديم الشفاء لها عندما كانت تتعرض للمرض. هذا مما أثار عليه "قليلو الدين" من سكان قريته. فأخذوا يتندّرون برواية أخبار شتى عن أعماله. لكنه ما بالى بهم أبدا. واستمر بتقديم خدماته لكل من يرغب... احدى النوادر التي يروونها عنه تقول انه في احدى السنوات طبب رجلا قصده من الساحل. وكان في بلعوم المريض ورم خبيث منعه عن ابتلاع الطعام. عالج "الحكيم" ذلك الرجل بدفنه في روث الماعز لعدة ايام. قام بعدها الساحلي

فأكل أقراصا من الكبة المقلية! لكنه مات، بعد شفائه مباشرة. "الحكيم" ينفي عن نفسه تلك الشائعة بشدة. لكن أهل الضيعة يتندرون بروايتها باستمرار...
عجوز تذكّرَت بأنهم في احدى السنوات اضطروا إلى نقل شقيقها المريض، على ظهر الدّابة، إلى قرية مجاورة كان يعيش فيها طبيب ذاع صيته. ذلك الطبيب تعلّم المهنة عن أمه التي كانت ضالعة في الكار قبل أن تورثه لابنها. وقد اشتهرت أكثر ما اشتهرت بمرهم كانت تطبخه على النار يشفي جميع أنواع الخدوش والجروح. ذلك المرهم عرفه القرويون باسم "مرهم بيت بو نسيب".
ومرهم آخر، في قرية أخرى، عرفه أهل الضيعة باسم "دواء عبّاس" كان يطبخه رجل خبير في أمور الطب والصيدلة. فالعم عبّاس رحمة الله عليه، قد أتقن في حياته جملة من الأعمال. فكان يخلع الأضراس بواسطة الكمّاشة لكل من يرغب. وكان معمرجيا شاطرا، وفلاحا نشيطا، ومكاريا، وطحانا، وسكافا يصنع الأحذية المتينة، وحلاقا لا يُعلى عليه، تاجرا، فرانا... كما اشتغل أيضا ببحثه الدائم عن الكنوز المرصودة في المغاور المسحورة. ولذلك لنا عودة اليه في الفصل الرابع. ومن الطريف ذكره، ان أهل القرية يذكرون بأن " العم عبّاس" لم يستحم أبدا إلاّ مرتين. مرة ساعة ولِد، ومرة أخرى ساعة فارق الحياة! بعد موته بحوالي شهر زارت امرأة بيت " العم عبّاس" تطلب خلع ضرسها. ولما أجابها ولده بأن والده قد توفي، سألته المرأة باستغراب شديد: " وهل أخذ الكماشة معه؟!"

المياه تحيي الزرع والضرع

"المياه لم تكن موزّعة على البيوت". يقول العجوز. "بل كانت تمر بقنوات محفورة في التراب. تمر متعرجة في أحياء القرية وبالقرب من الحقول. والماء تجري في القناة فقط عندما يحين الدّور. والدّور يضبطه "القنواتي" أو ناطور الماء. الذي كان عليه أن يسهر الليل قبل النهار. فعملية ري المزروعات كانت تستمر فيسري دور توزيع المياه على الفلاحين نهارا وليلا. كي لا يتأخر أحد عن الري فتذبل المزروعات، وتذوي خضرة الحقول. في الليل كان الفلاح يحمل بيده سراجا ينير به حلكة الظلام. فيرى أثلام زرعه ليرويها جيدا. كما كان يتمنطق بسلاح يستعمله ان بغته ضبع أو ثعبان. ومع ان القنواتي كان "حاضرا ناظرا"، إلاّ ان المشاكل كانت كثيرا ما تحصل بين القرويين حول الأولوية على الري. خاصة إذا تحيز الناطور لأحد ضد الآخر. "فشرّ المياه قريب" كما سنرى في فصل لاحق.
عجوز عمل كناطور للمياه منذ زمن بعيد، يروي عذابات مهنته تلك. فيقول بأن تنظيم الأدوار بين الفلاحين أتعبه كثيرا وأرهق أعصابه. فالطمع قد أعمى قلوب الكثيرين فما اكتفوا بأدوارهم. بل إنهم كانوا يتطاولون على أدوار الغير. لكن، في بعض الأحيان كان القنواتي نفسه يغض الطرف. خاصة متى كان في القصة "صبايا ملاح". "ففي أحد الأيام"، يروي العجوز:
"كانت صبايا الحارة الفوقا، تقمن بتنظيف لساحة ورشها بالماء. تهيئة للاحتفال بأحد الأعياد. وكانت القناة المارة في ذلك الجوار فارغة. فالدّور في ذلك اليوم لم يشملها. لذا، فقد تلبكت الصبايا بعناء نقل الماء في جِرارهن من العين. مررت بهن، فما أرضاني حالهن أبدا. رميت عليهن السلام، ودعوتهن للانتظار قليلا ريثما تتسنى لي العودة. فأدير لهن الماء على القناة. فشكرنني جزيل الشكر. وتسابقن على خطب ودي منذ ذلك النهار. مما أثار حسد أقراني من شباب القرية على تلك النعمة وذلك الامتياز. فأمنية كل شاب كانت نظرة أو بسمة أو لفتة تتحفه بها صبيّة على الطريق. ونصيب النواطير من النظرات والابتسامات والمناغشات كان وفيرا...".
بعد أن مرت القناة بين أحياء القرية إذا، وفرت الكثير من العناء على النساء. فأصبحن يعبئن الأوعية بالماء للأعمال المنزلية من قناة الحي القريبة بدلا من تعبئيها من العين البعيدة. كما أصبح بإمكانهن غسل الملابس على القناة، بدلا من نقلها وغسلها بالقرب من العين أو النبع. وقد كانت المرأة تبني لنفسها موقداً تشعله. وتضع فوقه حلّة تغلي بها الثياب المتّسخة. الصابون بأنواعه، طبعاً، لم يكن موجوداً في القرية في تلك الأيام. لذا فقد استعملت جدّاتنا "مياه الصّفوة"

وهي ماء نُقِعَت فيها كميّة من الرّماد، لتنظيف الأواني والثياب. عجائز كثر أكدن لي بحزم وإصرار بأن "مياه الصّفوة" تلك كانت تنظِّف بشكل أفضل مما تنظِّف المساحيق الحديثة مجتمعة! "كنا نجمع رماد حطب السنديان الذي نتدفأ عليه في فصل الشتاء". تقول إحداهن. وتكمل "ثم نعبئ وعاء كبيراً بالماء ونظيف اليه الرماد. نتركه منقوعاً لفترة من الزمن. ثم نقطِّر الماء ونستعملها لتنظيف الأطباق والقدور والثياب وغيرها. لكن، كان علينا اصطياد صغار الضفادع ويرقات البعوض منها أولاً! كل امرأة كانت تقتني "بلاطة" واسعة تدعك عليها غسيلها. "ومِخْباطاً" تضرب به الثياب لتزيل الأوساخ عنها. "والمِخْباط" كان يشبه مدقّة كبيرة من الخشب. حبال نشر الغسيل لم تكن دارجة بعد، لذا، كانت الثياب المبتلة تُنشَر فوق شجيرات "البلاّن" كي تجف.

كار الخياطة وفن التفصيل

الصّبية الشاطرة، كانت تتعلّم كار الخياطة بسرعة فتتقِن فن التفصيل. فالثياب الجاهزة لم تكن موجودة في المتاجر كما هي الحال اليوم. كل أم، كانت تخيط ملابسها وملابس زوجها وعيالها. ومكنة الخياطة، كانت أولى متطلّبات العروس من عريسها. فإذا لم يجلب لها المكنة، لا يكتمل الجهاز ولا يتم الفرح.

"أنا يا ابنتي، كنت، والشّهادة لله، من أمهر صبايا الضيعة في الخياطة! تقانتي ولباقتي في تفصيل شتى الملابس أكسبتني شهرة ومكانة بين نساء القرية. فكن يقصدنني كي أفصّل ثيابهن وثياب عيالهن. خاصة، متى كان القماش فاخراً وثميناً.... والصّبية الأكثر نشاطاً وتدبيراً في القيام بشتى الأعمال المنزلية وغير المنزلية، كانت الأوفر حظاً في الزواج من أفضل الشبان. سمعتها كانت تطير لتسبقها في معرفة الناس لها. فيتقاطر عليها العِرسان من كل حدب وصوب، ويتمكن والدها من انتقاء الأفضل لها... هيهات لبنات هذه الأيام منّا! التعب الذي كنا نتعبه لم يذقنه في حياتهن السهلة هذه. والشاب اليوم، فيا للعجب! لا يتورّع عن الاقتران بصبيّة، وإن كانت تجهل تحضير طبق من البيض المقلي!... كم تغيّرت طبائع الناس مع الأيام...".

في احدى القرى، اشتهرت صبيّة من الصبايا، وكان اسمها جميلة، بهمتها في العمل ونشاطها به. فأصبحت مضرباً للمثل في القرية. هذا ما حدا بأحد "القوّالة" الكثر في القرية إلى امتداحها قائلاً فيها:

جميلة مِثلا ما فيش
واللي ما يحبّا ما يعيش
يوم خياطة ويوم ركاش
ويوم غسيل ويوم حشيش...

كلام "القوّال" في جميلة يوضح بأن مثيلاتها بين صبايا الضيعة ندر وجودهن. فحيويتها في العمل أكسبتها المحبّة في قلوب الناس والاحترام في نفوسهم. طوبى للذي ينالها زوجة له. فهو ولا شك سيحيا وإياها سعيداً هانئاً. لأنها ستعينه على الدهر. فتقف إلى جانبه وتساعده في الحقل وفي جلب الحشائش لإطعام الدّواب والبهائم. ذلك، إلى جانب قيامها بكافة أعباء أعمالها المنزليّة من خياطة وغسيل ملابس وغير ذلك. ومساعدة المرأة لزوجها في الأعمال الزراعية أسعفته كثيراً. احداهن أكدت بأن المرأة كانت تنتقل للسكن في عرزال أو خيمة أو "يقلوم" يبتنيه الزوج بالقرب من بيدر القمح. فتمضي برفقته فصل الحصاد بأكمله وتعمل بكد وجد إلى جانبه. بعض النسوة كن يصطحبن معهن الخِراف المعلّفة وما يمكنهن من طيور دجاج. فالجاج على البيدر كانت تضاعف بيضها وتسمن كثيراً. أما الخروف فجلده كان يتفسّخ من كثرة الوزن أحياناً.

لذا، فاختيار الزوجة كانت عمليّة تُحْسَب خلالها الحِسابات الدّقيقة. أحياناً كثيرة، كان الشاب يضطر إلى ترك صبيّة يعشقها وتعشقه. كي يتزوج من أخرى تناسب وضعه أكثر. أحياناً أخرى، كانت العاطفة تتغلّب فيتزوج الشاب ممن يحب رغماً عن أنف الجميع. وللحب والزواج قصص وحكايا كثيرة وشيّقة. نتعرّض لها في الفصل التالي الذي يُقَدَّم للقارئ، مطاليع معنّى تشكي الفراق

أو تطلب الوصال، لتكشف لنا مفهوم العشق كما مارسه أجدادنا وجدّاتنا... وأسباب هجر الحبيب لحبيبه... طرق المصالحة بين العشاق... ومراسيل الخير بينهم... كما يتطرّق الفصل التالي إلى الحديث عن الأعراس وأجوائها التي كانت سائدة. فالفرحة الكبيرة بتزويج أحد الأبناء، كانت تستمر لأيام عديدة بلياليها. يعبّر فيها القروي راقصاً مغنياً عن سرور طال انتظاره.

الفصل الثّالث: الحب والزواج في حياة القرية

للغرام أغنيات وقصص تعيش في الذّاكرة. حية تنعش قلوباً جاوزت السبعين من العمر. والأغنيات ألّف كلامها القرويون أنفسهم فجاءت لتعبّر عن مكنونات الصدور. فتنقل ببساطة متناهية طبيعة العلاقة بين الحبيبين. فالتلاقي كان دائماً في السّر. ذلك لأن مجتمع القرية لم تكن تقاليده لتسمح بعلاقة غرام علنيّة. والعاشق متى شاع سرّه، عيّره الجميع وشمتت به العوازل. في ذلك شعر يقول:

إن حَبيت، حِب بنت أمير
وإن سرقت، اسرق حرير
وإن عيّروك، تَيحرز التّعيير...

ففعل الحب إذاً، مثل فعل السرقة تماماً. إن صمّم الإنسان على اقترافه، فليُحسِن الاختيار. كي يستطيع تبرير فعلته الشنيعة. عندما تلوكه الألسن بنقدها اللاذِع. فالحرير يستأهل السرقة، وابنة الأمير تستحق الحب. طبعاً، بحسب المفاهيم التي سادت العقلية القروية التقليدية في أوائل هذا القرن.

ولقد عانى الأحبة كثيراً من جرّاء الضغط الذي تعرّضت له عواطفهم وتصرّفاتهم. فالعاشق الذي كان ينظر إلى فتاته بعين الهوى والغرام، فضلها على كل ما في الدنيا من بنات ملوك وأمراء. ورأى فيها الحُسن كله والجمال كله. خاصة متى كان الوصال صعب المنال أو مستحيلاً. فهذا مما يؤجج نار الشوق الحارقة في القلب. فيثور عندها الخيال وتأتي الأغنية حاملة معها لواعج الغرام المكبوتة. ينشدها العاشق الولهان كي تسمع الحبيبة فتفقه ما لها من مكانة عزيزة في قلب فتاها. والأغنية التالية هاج العشق بقائلها فجاء كلامه على قدر كبير من الأسى والبؤس. عندما يصف حالة مع حسناء سلبت لبّه. فأضحى خائفاً على نفسه من الفضيحة والجنون والكلام يقول:

وان بكيتي الكون من أجلك بكي
وان ضحكتي اهتزّ عرش المملكة
وكل شي ربّنا خلق حسن وجمال
قيراط خاسِك عوّضه لطف وكمال
الغِنى وغِنج المعاطِف والدلال
واللياقة كلها خِلقِت بكِ
واللياقة كلها خِلقت وخَلَق
مِتلِك عَزَيِّك خالِقك ما عاد خَلَق
وسنان لولو شفاف أرق من الورق
وعيون شِهْل وشَعْر دبس بعلبكي
وعيون شِهل وشَعْر ساجد عالأقدام
يشفع بقلب المِبتِلي ويقول حرام
والثّغر، مين ما بيعرفه؟! إذا ما ابتسم
فستق مشَقق ريحته كالمستكة
فستق مشَقق ريحته نَدْ وزَبَاد
ما بينطق حرف إلاّ بالزّباد
ولسان، مخمل ليلكي فوقه انعقد
شبه اللمى بيصير حِلواً إن حِكي
شبه اللمى بيصير حِلواً بالكلام
والعِنق الله يسلموا عِنق الحمام
كتفين عْراض وزنود لولا من الكِمام
ذابو كما يذوب الذهب بالمَسْبَكِة

ذابو كما يذوب الذهب لولا الكِمام
والأصابع بالكفوف زَيّ القلام
والصدر مرجة قطن والأكواز تمام
رمّانتين واللون أحمر ليلكي
رمّانتين كبار كالعنّابتين
والطفل منها بيغتِذي من مصتين
والخصر لاطي تحت هاك الفيتَين
ناحل ملوّى من النحافة بيشتكي
ناحل ملوّى بتقصفو نسمة هوى
وكيف ما الردف التوى بشوفو التوى
وصف البقية صعب يا أهل الهوى
ومعنى الكلام بيفهمو العقلو ذكي
معنى الكلام يا مهجتي وصدق الخبر
إنتي وأنا ضمن الهوى شمس وقمر
يا حسرتي ما منلتقي غير بالنّظر
يا ريت إلا عطريق السّالكة
يا ريت إلا عطريق سالك صحيح
واندام عليي الحال هيك رح بنفضح
وحق السّما ووحياة جروحات المسيح
ما بذكرك إلا بيطلعلي البكي...

هكذا، فالشاعر العاشق يرى الكون كله باكياً إن بكت الحبيبة. أما إذا سمع ضحكتها ترن في اذنيه، اهتز لتلك الضحكة عرش مملكة الهوى في فؤاده. فهي في نظره أحسن المليحات. أسبغ الله عليها نعمة لن يسبغها على أحد. فأعطاها الجمال كله. ما خاسها منه سوى قيراطاً واحداً فقط. وزّعه عزّ وجل على ما تبقّى لديه من بشر. وعوّضه على المليحة لطفاً، ودلالاً، وغِنى في النّفس. فإذا بالعاشِق تائهاً في بحور هواها واصِفاً سحر مفاتن الجسد بكل دقّةٍ وتفصيل. ليعود فيختتم الأغنية شاكياً باكياً. فالانفراد بالحبيبة مستحيل. ورؤيتها في الأماكِن العامة تزيد من شوق الشاعر إلى لقاء حميم يتيح له حرية التصرف والتعبير، لكن الخيبة في الوصول إلى ذلك تقود الدموع إلى عينيه. فيلجأ إلى البكاء علّه يُفَرِّج الهم والكربة عنه.

أما الفتاة القروية العاشقة فكانت تحرص كل الحرص على إبقاء تصرفاتها ضمن حدود معينة. فهدفها الأول والأخير كان الزواج. "فالبنت البائرة" عار كبير على أهلها! فهي لا "تبور" إلا إذا كان بها علّة أو إنّة. لذا، فإن حصل الزواج من الحبيب، فهذا خير. وإن لم يحصل، فالزواج من غيره خير أيضاً. والشرط الرئيسي والأساسي لاقتران شاب بفتاة، ما كان سوى سلامة عذريتها. والتي كانت تجرؤ على التفريط بعذريتها قبل الزواج، ألحقت الفضيحة بأفراد عائلتها كلهم. فشرف العائلة رفيع ولا مجال للمزاح. ووصمة العار فيه ما كان يمحوها إلاّ الدم. دم الفتاة طبعاً يهدره رجل له بها قُربى. فيغسل به الخزي الذي طال كرامته، ليعود ويرفع رأسه ثانية بين أهل قريته. في صلب هذا الموضوع، رندحت عجوز مقعدة بأغنية كلامها به وضوح وطرافة. فهو يقول:

قَبِّت ذيل التنورة
وقالت لي: لَيْك
لو ما بيصير ضرورة
تُكْرَم عَيْنَيك!
لو ما بيصير ضرورة
ع السنيورة

وبتقوم توقع بالجورة
تفركش رجليك
حسناء الأغنية مغناج ترفع ذيل ثوبها بدلال متمنية مطارحة الغرام مع الحبيب متمنّعة عن ذلك. لأن به ضرراً مؤكداً وفادحاً وحتمياً سيلحق بها. فلا يعود بمقدورها الزواج. لا من العاشق الولهان ولا من سواه. لذا، فهي ترفع له طرف الرداء عن بُعد فتثيره. ثم تتمنع عليه فلا تسمح له بالمزيد. فإذا كان حسن النيّة تجاهها، أرسل والديه طالبين يدها. لينال ما تشتهي نفسه بعد أن تصبح الفتاة زوجة شرعية له. وإلاّ فلتحرق الشهوة بنيرانها المُستعرة أنفاسه. كما هي الصورة في الأغنية التالية. فالعاشق فيها هائم على وجهه يتمنى الموت لنفسه! عل المنية توافيه فتريحه مما هو عليه من محنة وعذاب. فالمصيبة حلّت به بعد أن فارقته الحبيبة. لذا، رفع صوته "بمَطْلوع معنّى" ألّف كلامه وأنشده طالباً الوصال مرة أخرى. وهو يقول:

برمت الدِّني والأرض وكل بحورها
وزرت كل بيوتها وقصورها
وسألت كل العوالِم والبشر
وكنت استخبر جميع طيورها
وسألت كل العوالِم والبشر
عن صبيّة حسنها قد انتشر
من يوم فِرْقِتْها دموعي كالمطر
جريت من مَدْمَعي جميع نهورها
جريت من مَدْمَعي السواقي والنهور
وتعوكَرِت من عظمها كل البحور
من بعدها وبريد اسكن بالقبور
ديار البِلِي وبحب إني زورها!
وبحِب اني زورها ديار البِلِي
وبشوف إنو هيك صار أحسن إلي!
يللي بياضا مثل بدر المِنْجِلي
ويشابه الحرير طَي شعورها
ويشابه الحرير ويفوت الحدود
من تمّها فحِّت رائحة الورود
قلبي يذوب والعين تُنْظُر للخدود
وعقلي يطير لمن تلوح بخصورها
لمن تلوح بخصورها بوقع قتيل
والعين تِبْكي والدموع منها تسيل
لو كنت بقدر طالها تَرْوِي الغليل
وظلام قلبي تبدلو بنورها
وظلام قلبي بينبدل عند اللقى
وبعيش بأرغد عَيش من بعد الشقى
والروح من بعدها تطير لخالِقا
والجسم يبلى في بطون قبورها
والجسم يبقى في التراب ويبتلي
صلّوا عليي يا الحوالى مَحْمَلِي
وان كان من بعد الغروب تمَيْلِي
قولي ديار الحب بدنا نزورها
قولي الحبيب يا ناس وَيْنو مِتِّكي

تحيا عظامي من التراب وتشتكي
ابكي على قبري وزيدي بالبِكي
وبللي تراب الأرض واسقي زهورها
العاشق في الأغنية إذاً، يدعو الحبيبة إمّا إلى ملاقاته أو إلى البكاء على قبره. فهو لن يحيا ثانيةً إلاّ بلقياها. لأنه شهيد الهوى قتيل الغرام. صرعه خصر الصّبيّة عندما لاح أمام عينيه. وفي العشق لا دواء سوى الدّاء. فنظرة أخرى إلى ذلك الخصر النّحيل يلوح أمام ناظِرَي الشاعر المتيّم، تروي له الغليل وتضمّد جراح هواه. فهل تراها ترأف بحاله وتوافيه، أم إنها تفضّل الانتظار علّه يقرع باب بيتها فيطلب يدها من أبيها؟!.
والأغنية التالية تشرح أسباب تخوّف الفتاة العاشقة في القرية قديماً. فالشاب هنا لَعوب مستخف بعاطفة الصّبيّة وقِلّة عقلها. فهي تنتظره طيلة فترة سبع سنوات، علّه يخطبها يوماً. فتلاقيه باستمرار مصدِّقة وعده إياها بالزواج. فيأتي كلامه ليصدم مشاعر تلك المسكينة السّاذجة، عندما يصدح صوته بالغناء:
هوّارة عالهَوّارة
ويا دِين أبوي الهَوّارة
هَوّارة ومْهَاوِرْكي
وسبع سنين مْجاوِرْكي
خمّنتيني باخِذْكي
ما رْبِحْتي إلاّ المِعْيارة!
إذاً، فالحيطة والحذر غالباً ما لازما عقل الفتاة وتفكيرها خاصة متى كانت جميلة ممشوقة القوام مليحة الوجه. عندها لا بدّ أن يحوم حولها مجموعة كبيرة من الشبان. أكثرهم لا يبتغي منها سوى تمضية الوقت والتسلية. وفي هذا الإطار تقول الأغنية:
عالكوكِيِّة الكوكيِّة
بتسوى ألفين وميِّة
الزعران حَولا بْتِتْبَرَّم
دجاجة وحولا واوية...!

الحرّية في البرّية
وعندما تستعر نار الشوق بين اثنين، تلاقيا وتناغشا. فأماكن اللقاء كثيرة وعديدة. أشهرها عين الماء والطريق التي تؤدّي اليها. حيث تلتقي النظرات بخجل وتبقى حرية التصرف مقيّدة بوجود أناس كثيرين ممن يردون المكان لتعبئة الجِرار. لذا، فالمكان المثالي للتلاقي البعيد عن الأعين كان في البرّية. الأغنية التالية تشرح الفكرة بوضوح مبرِّرة الأسباب. فالحرّية في البرّية الشاسعة مطلقة. والذهاب اليها يبرره العمل الصَّرف إما لجلب الحشائش أو لرعي الماشية... والأغنية تؤكِّد بالقول:
ليّا وليَّا ويا بنَيَّة
لولاكي ولولا عيونِك
عالعين ما لي مْجِيَّة
قومي تنروح عالحقلة
نسرح ونْحَوِّش بَقْلِة
هيكي قايللي عقلي
الحرّية في البرّية...
مخابئ البرّية إذاً، كانت ملجأ العشاق من القرويين. لأنها كانت الضمانة لحرّية التصرّف بين رجل وامرأة دون قيد أو شرط. لكن الويل كل الويل لمن تراه عينا الناطور في وضع مريب في البرّية! والناطور ما كان يصمت أبداً، إلاّ متى كان يحصل على نصيبه من "الطَّيِّب"! عجوز

طاعن في السن، أشعَّت الفرحة من عينيه الجاحظتين. وأشرق جبينه المُجَعّد لذكرى تلك الأيام الخوالي! بصوت متهدِّج صرَّح بالقول:
"هيهات معلوم... أحببت نساء كثيرات لكنني لم ألحق بأي واحدة منهن. بل كن يقصدنني زرافات ووحداناً إلى البرّية! فأسعد وإيّاهن بعيداً عن العيون... لم أكن لأخشى مرور الناطور أو مفاجأته لي! بالطبع، فقد كنت أنا الناطور! عملت في الكار طيلة سنوات شبابي... إيه والله! لقد استمتعت بأويقاتي تلك دون خوف أو قلق. فالأخبار لا تُنْقَل من خبايا البرّية ولا تُذاع لها أسرار... "لا من شاف ولا من دِرِي"، فلا تلوكنا الألسن... ولا تصل الأنباء إلى مسامع المرحومة! ولا إلى مسامع أزواج نسائي الجميلات!... مسكينة المرحومة! أمضت حياتها في التعب و"القرحَطَة"! كانت صغيرة السن عندما تزوجتها. ربّتها أمي كواحدة منا، بعد أن مات أهلها كلّهم إبان الحرب العالمية الأولى خلال فترة المجاعة التي حلّت في البلاد. فكبرت وكأنها "إبنة البيت"... لتصبح عروساً جاهزة! خطبتها فلم تكلّفني كثيراً جهاز عرسها اقتصر على قِماش فستان واحد اشتريته ونقدت التاجر نصف ثمنه! النصف الآخر بقي عليّ دَين لم أردّه للرجل الذي أمضى ردحاً كبيراً من الزمن يروح ويجئ مطالباً بفلوسه! دفعتها له أو لم أدفعها؟! لم أعد أذكر...".
ناطور آخر، في قرية أخرى مرض ذات يوم فأرسل ابنه وقد كان فتى يانعاً للعمل مكانه. في البرّية التقى الصّبي بامرأة طويلة عريضة المنكبين بهية الطلعة لفتت انتباهه. فقد كانت تحمل على كتفها حِملاً كبيراً من الحشائش. استوقفها ليسألها عما إذا كانت قد اقتطعت حمولتها من أملاك تخص الغير. فصاحب الأملاك هو الأحق بالاستفادة مما تُنتِج أرزاقه... لم تجب المرأة سؤال الفتى، بل داعبت شعره! ولما عرفت انه ابن الناطور انفرجت أساريرها وقالت له: "والدك يُشَلِّح الكل ما يحملون، ولا يُشَلِّحني..." تلبك الابن ولم يفقه!... في مساء ذلك اليوم، أخبر والده بالموضوع. فضحك الناطور ضحكة خبيثة، وأسرّ في أذن ولده هامساً: "صه! اخفض صوتك لئلاّ يسمعك أحد. هذه المرأة، أُشَلِّحها دائماً! فالمتعة في تشليحها لا تُقَاوَم!".

قصّة حب انتهت بالاقتران

الحكاية التالية، روتها عجوز متصابية تفوح منها روائح العطور. فهي، وبرغم السنوات، لا تزال تحتفظ ببقية من جمال. والسر في ذلك يرجع للسعادة التي لم تغب عنها يوماً. فلقد نجحت بالاقتران من الشاب الذي احبها واحبته. لتعيش عمرها بقربه. وتربي واياه عائلة كريمة تفخر بها كل الفخر. قصة غرامها كما في الأحلام! تحكيها بثقة وتنتقد ميوعة شباب هذه الأيام! الذين فقدوا حياءهم فأفقدوا الغرام روعته!
"في أيام صِباي، حُسني ضرب صيته في المنطقة كلها!" تعتد المرأة بالقول. "تقاطر عليّ العِرسان من كل حدب وصوب. فيهم الغني وفيهم الفقير. لكنني رفضت الجميع رفضاً قاطعاً غير آسفة ولم يجبرني أبي على الاقتران بأي شاب. لأن جمالي كان قادراً على اجتذاب الأغنى والأكثر جاهاً، على حد اعتقاده... لكنه لم يكن يدري بما كان مخبأ في البال! فقد كنت على علاقة غرام بشاب بهي الطلعة شديد البأس. تمنته لنفسها كل حسناء في القرية... لكنه كان يصد جميع تحرشاتهن بإباء وشمم. لأن قلبه كان ملكاً لي وحدي. مشكلتنا الأساسية كانت، فقر حاله ورقة حاشيته. فهو لم يكن سوى عامل مياوم بسيط في كرخانة الحرير. أهله لم تشمل أملاكهم سوى قطعة أرض واحدة قليلة المساحة. لذا، فقد كان عليّ انتظاره وقتاً طويلاً كي يجمع مهري وتكاليف العرس وثمن الجهاز...
غرامنا التهب يوم التقيته صدفة على الدرب... النظرة أدت إلى سلام وكلام وتعارف... ثم مراسيل حب، فلقاءات كثيرة... وهم كبير سكن قلبينا! مكاتيبه كانت تصلني عبر فتاة عملت معه في الكرخانة. كنت أقرأ الرسالة سريعاً وأتلفها على الفور كي لا يكتشف أحد أمري. لم أكن لأجرؤ على الرد عليه خطياً، فالحذر في العلاقة واجب. رجاحة عقلي أوحت إليّ بألا أترك لديه دليلاً حِسياً، قد يستعمله ضدي في حال عدم زواجي منه. فالفتاة الواعية تحسب للدهر حساباً...

خلسةً كنا نلتقي... تارةً بين دوالي كروم العنب... وطوراً في البرّية... وتارةً على عين الماء. حيث كان يجلس منتظراً قدومي لملء الجرّة. وعلى "العين" لم يكن الحديث مباشراً بيننا! بل كان العاشق يطلق العنان لصوته فيصدح بالغناء حين أطل بقامتي عن بُعد!".
تضحك المرأة، وتتذكر المزيد، فتكمل حديثها:
"مرةً تأخرت عليه كثيراً. فساق دابّةً أمامه مرّ بها بالقرب من منزلنا. وكنت في الداخل أقوم بأحد الأعمال. فسمعت صوته يغني معاتباً إياي:

لقعد عجنب المناهيل والعين
واستنى لظريف الطول عالعين
خمنت المحبة غمز بالعين
تاري المحبة بالقلوب مولعة...

مرةً أخرى التقيته في البرّية. "هو كان يصطاد الطيور، وأنا كنت أجمع الحشائش لبهائمنا... استمتعنا بكل دقيقة أمضيناها سوية! وعندما حان وقت الانصراف، أصر على إهدائي الطائر الوحيد الذي كان قد اصطاده خصيصاً لغدائي... فرحت بتلك الهدية الخاصة وتلبكت بها... عندما رأتني أمي انتف الريش، اخترعت لها تبريراً معقولاً صدَّقَته بسذاجة وطيب قلب. أخبرتها بما اوتيت من براءة، كيف التفتّ فجأة ناحية هيشةٍ كبيرة من العلّيق. فإذا بي المح الطائر مرمياً في وسطها. وتلوت على مسامعها تفاصيل مشقّتي التي تكبّدتها في سبيل التقاط الطائر من بين أغصان تلك الهيشة الشائكة!... حقاً، لم أذق في حياتي طعاماً الذّ ولا أشهى من لحم ذلك العصفور!
وبعد طول انتظار، جمع الحبيب مبلغاً معقولاً من المال. فبان في دارنا، برفقة أهله، طالباً يدي للزواج. لكنه قوبل برفض قاطع. فخرج ليبعث بالوساطة تلو الوساطة، محاولاً النجاح. ومرّت فترة طويلة لم أتمكن خلالها من موافاته إلى أماكن لقاءنا المعهود. فأصبح يأتي متخفّياً في الليالي ليجلس تحت شبّاك علّيتنا. فيسترق السمع إلى أحاديثنا عنه حيناً. ويسرق نظرةً أرميه بها خلسةً أحياناً. وعندما نجح الوسطاء، رضي أهلي به صهراً لهم. لكن بعد تدخّل أعيان المنطقة كلهم في ذلك الموضوع الشائك. وبعد أن قَبِل هو بكل شروطهم الصعبة للزواج... فدفع مهراً غالياً قدره عشرون ليرة ذهبية عثمانية. واشترى لي جهازاً فخماً وكاملاً قوامه: ماكينة خياطة، خزانة بمرايا طويلة، زوج من الأساور الذهبية، أزواج من الملابس الداخلية. حذاء من الجلد، مناديل من الحرير، أربع فساتين بعضها من المخمل وبعضها الآخر من الدّيما ذلك بالإضافة إلى فستان العرس الحريري الأخضر. وقد كلّف ثمن قماشه خمس ليرات ذهبية. كما كلّفت أجرة خياطته ليرتين ذهبيتين... بعد العرس، كانت الديون قد أصبحت باهضة على العريس وعلى أهله! مرّت سنوات قبل أن يتمكّن من تسديدها كلها...
عرسنا المشهود، استمر لعدّة أيام بلياليها. حيث علت أصوات النسوة بالزّغاريد وارتفعت أصوات الرجال بالغناء وتشابكت الأيدي على الدبكة... كما صدحت موسيقى النّاي والمِجْوِز وإيقاعات الدربكّة... لا زلت أذكر بعضاً من الغناء.
هنا، أخذت المرأة بالتصفيق والتمايل على أنغام صوتها وهي تغني:

" لاطلع عالجبل حوِّش بطاطا
وكلّوا عشانِك يامّ الحطاطة
لاخذ حبيبي وأعمِل شماطا
وإحكم بأهلو حِكم فرعونا...!

هوّارة يا هْوَيْريّة
ويا رُزّْ وعلى شْعَيْريّة
والما بيهوى الصّبيّة
بالسما ما له غفّارة...

شفت الماني بتجرش جَرش
وجرشِت عظمي جَرْش وجَرْش
صاحِت كل ديوك العَرْش
وصحت أنا، يا خِلاّني...!"
انتهت السيدة المسنة من الغناء، لتُطْلِق وبحماسة ما بعدها حماسة، زغرودة تذكّرت إن حماتها قالتها لها قبل أن تدخل وهي عروس إلى بيتها الزوجي:
"آويها... ويا عروسي ويا بَيْضا ويا مْغُضّا
آويها... ويا سمكة البحر تسبح في زَرَد فضّة
آويها... وياما دَفعنا مال لبيِّك تيرضى
آويها... اصلحوا بيناتنا وتقبر عيشة البُغْضا..."

حكاية "غانمة" في كرخانة الحرير

حكاية الحب التالية روتها إحداهن عن صديقة لها تُدعى غانمة كانت حلوة حسنة الوجه والقوام، تعمل في إحدى كرخانات الحرير. افتتن بها صاحب العمل الذي كان شاباً جميلاً حسن الخِلقة والأخلاق. والده كان أكبر ملاّك في القرية. بينما والد الفتاة رقيق الحال يعيش وعائلته من عرق الجِباه. اللقاء بين العاشقين كان يتم في مكان العمل نهاراً. وفي المكان عينه ليلاً عندما تتمكّن الفتاة من ملاقاة فتاها بعد أن ينام أهل بيتها. فتسير مُتَسَلِّلة متَّبِعة المَثل القروي القديم: " تْشوفَكْ النّجوم ولا تْشوفَك العيون". وكان أن سافر الشاب يوماً في رحلة عمل استغرق غيابه فيها عدّة أسابيع. فكوى الشّوق بناره الحارقة فؤاد الفتاة التي نظمت أغنية اشتهرت بها بين صديقاتها. كلامها يقول:
يا رسولي وكون عاسراري أمين
وإقرا سلامي عاللي عيونوا غايبين
يا رسولي عندما تْخِشْ الحِمى
سلموا المكتوب لأيدو اليمين
يا رسولي عندما تْخِشْ الحمى
من المهالِك والمخاطِر تنحمى
بوسط قلبي لَو مرق عاصي حماه
ما بيطفي نار وجدي يا فَطين
رمل الحصى لو جمعتوا بينحصى
من دون حبك ما انجمع مع صاحبك!
بعد عودة الشاب من سفره، شنَّفَت الأغنية أذنيه فعزم على خطبة الفتاة من أهلها. لكن والده مانع بشدة وحسم مهدداً إياه بحرمانه من الميراث. "فغانمة، ليست من مَزَاوِيجنا يا بني!" قالتها له والدته التي بحثت جاهدة عن عروس تليق بالمقام. قبل أن تجدها، هاجر ابنها إلى اميركا ولم يعد إلى القرية أبداً. تألمت غانمة من الفراق لأيام وأسابيع وشهور... تزوّجت بعدها من شاب آخر. لكن شعر أغنياتها ظل حزيناً يائساً، يشكو الفراق.
فالزواج إذاً، من الحبيب العاشق لم يكن بالأمر الهين. هذا ما أكّدَته بحسرة إحدى العجائز. وقد أجبرها والدها على الاقتران بشاب لم تكن تحبه. فاضطرت إلى الافتراق عن العاشق... تتذكر المرأة الأحداث وترويها بنقمة ويأس:
"لفى الحبيب إلى بيتنا ناوياً خطبتي. أهلي لم يعارضوا مجيئه أبداً. بل أكرموا وفادته في بادئ الأمر. وقد استمرت حال الوئام تلك، إلى أن جاءنا جماعة يقربون جدتي لأبي طالبين يدي لأحد أبناءهم... رحّب والدي بأقاربه وطرد خطيبي من المنزل! حاولت جاهدة أن اعارض رغبته تارة بالبكاء وتارة بتهديده بالانتحار... لكن عبثاً... كان رحمه الله، يرمي بطربوشه أرضاً ويصيح بي:

"الذي يموت ندفنه، والذي يعيش يسمع الكلام! لن أرفض طلب أخوالي ولن أتَنَكَّر لأواصر القربى...".
الشاب الذي أحببت، حاول اختطافي. جمع أقاربه فرسم خطّة وإياهم وحملوا السلاح لمساعدته. لكن إحدى قريباته، وقد كانت تريده لنفسها، سرّبَت الخبر إلى آذان شقيقتي. فحبسني والدي في بيت الجيران، وقد كان عندهم تسعة أبناء أقوياء تناوبوا على حراستي ليل نهار! فلم أعد أجرؤ على التفكير بالهرب كي لا تقع الكارثة وتنشب الحرب...
مشكلتي الكبيرة كانت إنني ما استعطت أبداً أن اميل إلى العريس. فلقد كان بشعاً قبيح الصورة. عندما أوضحت ذلك الأمر لإحدى قريباته أجابتني بالقول:"لا عليكي! فهو ما زال فتيّاً صغير السِّن. ستصبح خلقته جميلة جداً عندما يكبر!" تمنّيت من كل قلبي أن يكون كلامها صحيحاً. لكنني تابعت على الرفض والممانعة... وتابع أهلي ضغطهم عليّ. فقد كان العريس في نظرهم "فلاَّحاً مكفيّاً". و "الفلاَّح المكفي، سلطان مخفي" كما قال المثل القديم. أهله أرزاقهم كبيرة وغِلالهم وافرة..." "الجِبّ الذي ينتمون إليه هو الأكبر ضمن أجباب عائلتهم... وقد اعتبروا رفضي إهانة في حقهم. ففي أحد الأيام قصدتني إحداهن مهدِّدَة متوعِّدة. قالت لي بغضب ولؤم: " إن بقيتي على رأيك، سنأتي ونقيِّد والدك ووالدتك بالحبال. ثم نخطفك رغماً عن أنفك!" أرعبني كلامها. خاصة وكانت قد حصلت حادثة اختطاف مشابهة قام بها أقرباء العريس قبل حين...
فسلَّمت أمري إلى الله وأعلنت موافقتي. فإذا كان لا بدّ من الزواج، فلأحفظ كرامتي ولأرحل من بيت والدي عروساً معزَّزة مكرَّمة...
جهاز عرسي تألف من بضع فساتين وحذاء من الجلد. أما زوج الأساور الذي أهداه اليّ العريس، فلقد استرده مني بعد أن أصبحت حلاله. ليرجعه بدوره إلى إحدى قريباته التي كانت قد أعارته إياه! لم يجلب لي ماكينة الخياطة! اما الصندوق والفرشة فاشتراهم والدي. حمَّلناهم على ظهور الدواب ونقلناهم معنا إلى بيت زوجي في نهار العرس. وقد مشت تلك الدواب المُحَمَّلة وراء المشاركين في الاحتفال!
فستان العرس كان نبيذي اللون. لبسته وغطّيت رأسي بمنديل طويل من الحرير. الاحتفال كان متواضعاً جداً... لم أحس خلاله إلاّ بالشقاء وبالمرارة. وقد كان دارِجاً في قريتنا أن تُغْمِض العروس عينيها طيلة فترة الاحتفال بعرسها. فكانت أمي تزجرني كلما لمحت عيني مفتوحتين لتذرفا الدموع بغزارة!
عاش زوجي معي سنتين وبعض السنة. رُزِقت خلالها بثلاثة أطفال. سافر بعدها إلى المَهْجَر بحثاً عن الثروة. لكنه مات في البحر عندما غرقت الباخرة التي كانت تقلّه. فأُجبِرت على العمل الشاق طيلة حياتي حتى استطعت تربية الأولاد. عملت في كرخانات الحرير. كما خدمت في بيوت الأغنياء. وعشت هذا العمر بالعذاب والقهر... لم يكن ليخفف عني الغم والكربة، سوى صوت "مكاري" كان يمر في العشية مغنياً اغنيته الحزينة. فتجري الدموع في عينيّ وأصيخ السمع إلى الكلام الجميل:

جار عليي الدهر
لَهْ يا غَلْبْتي
وبسبع ضربات
كانت ضربتي
يا رَبّ لا تِبْلي
حدن بمصيبتي
لا عدو ولا محب
من البشر
لا عدو ولا محب
من الحباب
وضربتي

من سبع ضربات الغضب!"
نترك العجوز تلتقط دموعها، لنفتح جراح عجوز أخرى شكت أيضاً من "قِلَّة النَّصيب مع الرِّجال". تتنهّد عميقاً قبل أن تبدأ: "كانت عائلتنا تتألّف من أبي وأمي وثلاث شقيقات لي وأنا. تزوّجت شقيقاتي ومات أبي. فلم يبق في البيت سوى أمي وأنا نعيش بلا رجل يحمينا ويذود عن الدار. في أحد الأيام لفى إلى القرية شاب فقير قاصداً العمل والارتزاق. تعرّفت إليه فأعجبني وأعجبته واتفقنا على الزواج بشرط أن يعيش وإياي في بيت أبي. لكن أمي لم توافق عليه في بادئ الأمر. فلقد عيّرتها نسوة الحارة بثيابه الرَّثة وقدميه الحافيتين... اقنعتها بعد جهد، بأنه شاب جميل وقوي... وإنه قادر على العمل والكسب... متى تزوّجته يتسلّم الحقول التي نمتلكها، فيُصلِح من شأنه ومن شأن ملابسه... هكذا كان، بعد أن وافقت الوالدة على الفِكرة.
عاش معي ذلك الزوج سنتين كاملتين رزقنا خلالها بطفلتين. كما إنه كدّ واجتهد في الأعمال الزراعية فدفق الخير علينا. ولبس زوجي ثياباً جديدة فأصبح منظره على أحسن ما يُرام. كما إنه انتعل في قدميه حذاء جلدياً فاخِراً "يزيزق" عن بُعد كل ما مرّ في مكان ما. عندها، استحلته ابنة عم لي، وكانت امرأة متزوِّجة لديها العديد من الأولاد. سرقته تلك الفاجرة، بعد أن كانت اولى المستهزئات بمنظر ثيابه الرَّثة عند زواجي منه! لم أصدِّق القائل الذي أخبرني بأنها تكلِّم رجلي وتلاقيه. ذلك لأصحو يوماً فأجدها قد اختطفته وهربت به إلى منطقة بعيدة... بعد مدة طلّقني وتزوجها. لعنة الله عليها فأمها من قبلها كانت قد اختطفت لنا قبل سنوات خطيباً نوى الزواج من ابنة أختي! هربت به وتزوجت منه وهو في سن أولادها! صح معنا المثل القائل :"طُبّ الجرَّة عتِمّا بتطلع البنت لإمّا!"... يا حسرتي أمضيت هذا العمر أندب حظي وأعمل بلا كلل... لم أحاول الزواج ثانية!".
عجوز أخرى، تزوجت ثلاث مرات! لكن حظها مع الرجال لم يكن بأحسن من حظ السيدة السابقة. فتأتي تجربتها مع الأزواج طريفة وفريدة من نوعها. زوجها الثالث توفي قبل سنتين، لكنها لن تفكر في عريس رابع لأنها كبرت في السن "ولم تعد تقوى على خدمة الرجال والعِراك معهم!" تبدأ حكايتها بحماسة فتقول:
"العريس الأول كان اسمه صالح. بعث لي الله به من أميركا حيث كان مهاجراً. وعاد إلى القرية ينوي الزواج من ابنة جارنا التي كانت على علاقة حب وإياه قبل سفره. تلك الفتاة طال انتظارها له. لكنها بقيت على عهده مترقبة قدومه على أحر من الجمر. وكنت أنا أول من بشَّرها بعودته سالماً عندما سمعت النَّبأ السعيد! لكن والده عارض بشدّة زواج ابنه من الفتاة. عندئذٍ، أقنع الشاب جده وجدته وعمته بالتوجّه إلى دار جارنا وطلب يد ابنته منه. لكن الرجل ثار وطرد الجماعة من بيته عندما علم بموقف والد العريس. وهكذا لم "يَتِمّ النَّصيب" بين الحبيبين...
حينها، كنت في الثالثة عشر من عمري. وكنت عاملة نشيطة في كرخانة الحرير. عدت من عملي ذات يوم، لأجد سلّة من العنب الطازج أمام الباب. مددت يدي كي آخذ خصلة من ذلك العنب الشهي المنظر، فزجرتني أمي. وقالت إن تلك الفاكهة أُحضِرَت لتُقَدّم للضيوف. استفسرت من الوالدة عن هؤلاء الضيوف. فأجابت بأنهم والد صالح ووالدته يبتغون خطبة عروس لإبنهم. فاستغربت ذلك وسألت عمّن تراها تكون تلك العروس. فأجابتني أمي:"أنت"! صعقني الخبر، فقد كنت صغيرة لا أفقه أي معنى للزواج. وجريت راكِضة لأجلس في ظل شجرة الخوخ في الحديقة، كي أبكي وأندب حظي التاعس...
وعد أهلي الجماعة بي عروساً وقبضوا المهر. ثم منعوني من الذهاب إلى العمل في الكرخانة. وأرسلوني كي أتعلّم الخياطة لدى امرأة بارعة في الكار اسمها عزيزة. عدت من عندها يوماً لأرى النساء منهمكات في إعداد الحلوى من زلابية ومعكرون ومهداويِّة ومْطَبَّق وغيرها. سألت النسوة عن المناسبة السعيدة، فأخبرتني إحداهن بأنهم سيكتبون كتابي على العريس في تلك الليلة. ذُهِلْت وصفقت كفاً بكف. ثم جريت أبكي تحت شجرة الخوخ في الحديقة. لكن أخي رآني، فصفعني وجرّ بي إلى داخل البيت. بعد تلك الليلة، صار صالحاً ذاك يَلفي عليَّ باستمرار منتظراً حلول موعد العرس. لكن أمي لم تكن تسمح له بالانفراد بي ولا بالجلوس إلى جانبي. فأدى ذلك

إلى خلاف حاد بينهما. وطردته من المنزل شر طردة. كما لم تعد تسمح له برؤيتي. طالت فترة القطيعة والخلاف. ليتدخل بعدها بعض الوسطاء من أعيان القرية. فسُوِي الموضوع وأكمل لي العريس شراء الجهاز. فأحضر لي ماكينة خياطة، وزوجاً من الأساور الذهبية، وصندوق، وحذاء من الجلد، وأربع فساتين من الحرير ومن المخمل، وزوجاً من الكلسات بلغ ثمنه ليرتين ذهبيتين. لبسته طيلة سنتين ولم يبلى لأنه كان من الحرير الخالص!
لم ترض أمي أن تقيم لي عرساً في بيت أبي لأنها كانت لا تزال غاضبة حانقة على"قلّة شئمة" صالح. وفي بيت العريس كان الاحتفال متواضعاً جداً. قبل دخولي عتبة الدار، وقفت جدَّته مرحِّبة بي مزغردة بالقول:
آويها... ويا عروسي مالِك مِعْبْسِة مالِك؟!
آويها... وإن ضحكتي حمام الدار ناغالِك
آويها... وإن كان صالح عريسك نيَّالِك
آويها... يُقْضي ويمضي ويخلي الهم عن بالِك!

كان ذلك العريس كسولاً خامِلاً لا يحب العمل في الزراعة. بعد مضي أشهر قليلة على زواجنا لم يعد معه مالاً. فأقنعني بأن أعطيه مصاغي فيبيعه ويرحل بثمنه إلى أميركا. يؤسِّس لنفسه عملاً هناك ثم يبعث بطلبي فألحق به. أغرتني فكرة السَّفر كثيراً. فوافقت معه ورحل. خلال غيابه وضعت طفلاً كنت قد حملت به قبل سفره. فجأةً استلمت منه رسالة يُنبئني فيها بأنه قادم إلى القرية! فبعثت اليه بجواب لأذكره بما كان قد وعدني به. أغضبه ذلك! وأرسل لي مكتوباً شديد اللهجة متَّهماً إياي بأنني أريد السفر كي ألبس البرنيطة وأتبع الموضة. ثارت كرامتي بعد أن جرحني كلامه القاسي. وأرسلت له مِرسالاً مُقْتَضَباً طالِبة الطّلاق فرفض طلبي وكتب إليَّ بالقول:" سأجعلك امرأة نفسك وفتاة نفسك"! وقد عنى بذلك انه لن يعاملني كزوجة حين عودته. ولن يطلِّقني فأبقى تحت عصمته، وأتعذَّب وأنقهر! لكنه خسئ،! لأنني تركت له جميع حقوقي بما فيها رعاية ابنه وطلَّقته على مسئوليتي. فالشَّرع حسب مذهبنا يسمح للمرأة بهذا الحق.
أما العريس الثاني، فقد كان اسمه جميل. حكايتي معه حكاية تُروَى! فقد كان متزوِّجاً من صديقة لي وله منها ولدان. اشتغل ناطوراً للكروم وتردّد إلى بيتنا باستمرار. ربطته بأخي أواصر الصداقة المتينة... مشاكله مع زوجته ما كانت تنقطع، فتشكو اليَّ المسكينة همها. كنت استمع إليها، وازرع الصَّبر في قلبها علّها تتمكّن من التّأقلم مع بائع زوجها الظالم. فتكمل العمر معه وتربّي أطفالها...
ذات يوم، كنت في طريقي إلى الكروم. كانت برفقتي بضع صبايا. رآنا الناطور في الكرم، فقصدنا مُتَحرِّشاً متَّهماً إيّانا بالسّرقة. لكن ذلك الكرم كان ملكاً لوالدي! لذا، تصدَّيت له دافِعة تلك التّهمة الشّنيعة عنا. لكنه رفع صوته يطردنا من المكان. شتمته. فهدَّدني بأنه سيشكوني إلى رئيس البلدية. كُلْت عندها سيلاً عارِماً من السُّباب له وللبلدية ولرئيسها... فلوَّح بعصاه متوعِّداً! فغي اليوم التالي زارنا رئيس البلدية مُعاتِباً إياي بقسوة. فأخبرته بحقيقة الذي جرى بيني وبين الرجل. فتفهَّم الأمر وأنّبه على تحرّشه بنا.
في يوم آخر، عدت من عملي في الكرخانة لأجِد جميلاً يتمشى في رواق أمام باب بيتنا. ولما لم يكن أحد من أهلي موجوداً عرفت إنه ينتظر قدومي للانفراد بي. فأسرعت إلى الداخل وأقفلت الباب بإحكام. فعاد إلى داره حانقاً. عند وصوله، سمع صوت حماته تحرِّض ابنتها عليه. فثار وركل الباب بقدمه ودخل على امرأته وأمها منهالاً بالشتائم والضرب... كانت حماته تلك امرأة شرِّيرة. فسَّرت ثورته عليها وعلى ابنتها بأنه كان قادِماً من عندي. فضرب زوجته بعد أن علّمته أنا على ذلك. كي تطلِّقه فيصبح حرّاً ويتزوجني.
وصلني الخبر بعد أن نقله جار لنا، سمعه بدوره من كميل. وكميل كان شقيق امرأة الناطور. فهالني أن يتهمني كميل بتلك التهمة الشنيعة، وقد كان لي عليه فضل كبير. إذ، لولا حكمتي وتدبيري لما استطاع أن يتزوّج من الفتاة التي عشقها! ولذلك قصّة: فهو كان مغرماً بابنة جيراننا.

نهاه والده عن ذلك الغرام، فما ارتدّ وما ارتدع. في أحد الأيام كان أهل الفتاة في البرّية يحوِّشون نبات الصّعتر. فجاءها كميل على عجل ونسي حذاءه أمام الباب. الذي أحكمت الصّبيّة إقفاله من الداخِل.
لحق والد الشاب بابنه بعد فترة قصيرة، إذ اشتلق عليه بأنه كان على موعد غرام. ورأى الحذاء أمام باب الجماعة فعرفه. طرق الرجل باب بيتنا وطلب إليَّ أن أنادي على ولده. فوعدته بأن أفعل بعد أن يرحل هو إلى منزله كي لا تقع الفضيحة. لكنه لم يسمع كلامي بل اقتحم المنزل على العاشقين بعد أن خلع الباب وجرَّ ابنه خلفه من شعره. وجعل يضربه بالحِذاء لاعناً إياه... لم يكن الشاب يملك إلاّ بذلة معلّقة على علاّقة في الحائط أعطاه إياها والده وطرده من البيت. رأيت ذلك كله لأني كنت قد لحقت بهما. فأحزنني ما جرى. لذا، أخذت البذلة والعلاَّقة من الشاب ثم دعوته إلى مرافقتي. عند وصولنا إلى المنزل، هدَّأت من روعه وقلت له:"هل ترغب حقاً بالزواج من الفتاة، يا كميل؟" فأومأ إليَّ بالإيجاب. أمرته بأن يذهب ويدعو الأعيان في القرية إلى منزل والد الفتاة لحضور حفلة الزفاف! فعلاً حصل ذلك. وحضر إلى العرس الذي جرت مراسيمه تلك الليلة بالذات جميع المدعوين. وقد غصّ بهم المكان الضَّيق.
عاد أهل الفتاة من البرّية فوجدوا الجمع في دارهم. باركوا العرس وجرى الاحتفال. ولما لم يكن لكميل منزل يأويه وعروسه. فقد كلمت له إحدى قريباتي التي كانت تملك قبواً مهملاً لا يستعمله أحد. فوافقت أن تعطي مفتاحه للعريس كي يسكنه. هكذا كان... وقد تبرّع المدعوين بالأثاث كلّه... بعد تلك القصة، نقم عليّ والد كميل ووالدته التي لفّقت لي التّهمة بأني عشيقة لصهرها الناطور! صمّمت على الانتقام من تلك المرأة. فأرسلت من يخبرها بأنني فعلاً سأجعل الناطور يطلِّق ابنتها. فأتزوجه. ولو لمدة عشرة أيام فقط. إن لم يطلِّقني هو بعدها، أطلِّقه أنا! في اليوم التالي زارنا جميل كي يجرش قمحه على جاروشنا. فقلت له:" اسمع يا هذا، إمّا أن لا تعود إلى زيارتنا أبداً أو أن تطلِّق زوجتك فأتزوجك. أنا لا أريد أن تلفِّق حماتك الأخبار عنِّي وعنك. فكِّر في الموضوع ملياً وتصرَّف." طلَّق الرجل زوجته. تزوَّج مني. وعشت في داره سنوات عديدة رُزِقت خلالها بعدد من الأطفال. لكنه كان نَزِق الطِّباع صعب المراس! شرساً يغضب ويقاتل ويشتم ويضرب لأتفه الأسباب. والدته كانت امرأة شرِّيرة مشاكِسة تصطاد المشاكل اصطياداً. ما أرادت لي الخير أبداً منذ ساعة دخولي إلى بيتهم. تحططت تلك السّيئة الذكر عليَّ وأصبحت تلفِّق لي تهماً. وتفسِّد إبنها كي يمرمِر عيشي. مرة سرقت لي دجاجة ذبحتها وأكلت لحمها بعد أن نتفت البعض من ريشها. ورمت به تحت دالية في الكروم كي أحسب بأن الواوي سرق دجاجتي والتهمها. لكن رائحة الدجاج المطبوخ فاحت من غرفة سكنها على عدة أيام... كانت تمد يدها باستمرار تارة لتسرق غسيلي المنشور. وطوراً لتسرق فردة من حذاء لي أو لأحد أطفالي. وتارة لتسرق صوصاً من صيصاني تخنقه وترميه. كما كانت تؤلِّب أبناء الزوجة الأولى ضدي... أخيراً طفح الكيل بي، ولم أعد أطيق الصبر. فطلبت الطلاق من جميل. وعندما أبى ذلك. تركت له جميع حقوقي بما فيها حضانة الأولاد وطلَّقته لأعود أدراجي إلى بيت أبي.
كان والِداي قد توفيا، فعشت وحيدة في إحدى الغرف المُلحقة بالبيت الذي كان يشغله أخي الكبير وعائلته. وعدت إلى العمل في الكرخانة كي أعتاش. فالسَّكن مع نساء الأخوة لم اقدر على احتماله. كل امرأة منهن كانت تريدني لخدمتها ولخدمة أولادها. لذا، فضَّلت البقاء وحيدة بحرِّيتي... ومع ذلك لم أسلم من الشر! فزوجة أخي الكبير كانت جارتي كما تعلمين. مرة كانت شقيقاتي في زيارتي. قطفت لهن العنب من العريشة. هرَّت بعض حبَّات على الأرض. رأتها الكنَّة العزيزة فصاحت بأعلى صوتها:" ومن قطف العناقيد؟!" فأجبتها بأنني فعلت ذلك. صاحت ثانية:"ولماذا؟!" عندها، أخذ على خاطري كثيراً فهذه "الغريبة" تريد حرمان ابنة البيت من اكل ثمار العريشة! أمسكت بعصا غليظة وجعلت اضرب الدّوالي حتى هرّت عناقيدها وأوراقها على الأرض. وعندما عاد أخي من عمله في المساء. أخبرته بأن امرأته استكثرت بي حبّة من العنب! فغضب وقاتلها ثم طردها إلى منزل أبيها. ولم يسمح لها بالعودة إلاّ بعد تدخل الوسطاء بالموضوع...

زوجي الثالث كان كبير السِّن، توفيت امرأته الأولى فاحتاج امرأة ثانية كي ترعى شؤونه وشؤون منزله خاصة وإن صحته لم تكن على ما يرام. سمع بي، فبعث من يخطبني له. لم اوافق في بادئ الأمر، لكن أشقائي فرضوا عليّ الاقتران به كي لا أبقى وحيدة. قبلت على مضض بعد أن ارسل إليَّ مبلغاً من المال. انتقلت إلى العَيش في منزله بعد عقد القران. والمنزل كان مقسوماً بينه وبين شقيقه. امرأة شقيقه كانت حسودة ومؤذية. ما أحببتها وما أحبتني. كانت تشتري المشاكل وبالعملة الصعبة! فتفتعِل الشر افتعالاً... فصولها معي كثيرة، أذكر إنها في إحدى السنوات سافرت كي تزور ابتها المقيمة في بلد شقيق. غابت عندها لبضعة اشهر. خلال غيبتها أهدى إليَّ زوجها "قِرْقَة" ربخت على بيوضها كي تُفقِّس. فالرجل كان وحيداً لا يستطيع الاهتمام بتلك الدجاجة متى فقست صيصانها. قبلت هديته شاكرة ووعدته بأن اعطيه فرخة وديك متى عادت امرأته من غيبتها. هكذا كان، فقد انتقيت لها اثنين من الطيور ارسلتهما اليها مع حفيدها. لكن الحفيد عاد إليَّ بالطائرين مدَّعياً بأن جدته تريد غيرهما لأنهما "لوق" لا يصلحان. فبعثت اليها برسالة شفهية تليق بشأنها. أفهمتها قَدر نفسها ولم ابدل لها الديك والفرخة. فلو فعلت ذلك لكانت "كسرَت عَلَيَّ..." لعن الله تلك المرأة فلقد اتعبتني كثيراً... وهكذا امضيت هذا العمر. لا حظّ لي مع الرجال مع انني جرَّبت العديد منهم. جار دهري عليَّ فكنت أبتلي برجل لأعود وأبتلي بغيره..."
قصة غرام وزواج تالية، يرويها لنا عجوز وحيد لا أولاد عنده. يبدأ الرجل حديثه مُعاتِباً إياي بالقول "آه! كم هو عنيد جنس النساء... أصرّ عليها الطبيب لطف الله بأن لا تأكل القِلقَاس المطبوخ مع العدَس. لكنها لم تقتنع! قتلها القِلقَاس. فقد كانت تلتهمه بشراهة... في ذلك اليوم المشؤوم طبخت القِلقَاس والعدَس. لم تمضِ ربع ساعة على تناولها الطعام حتى هوَت متألمة. ركضت بأقصى سرعة أنده على لطف الله... لكنه لم يلحقها. ماتت... ألف لعنة على القِلقَاس وألف لعنة على العدَس! وألف ألف رحمة على زوجتي التي عشت معها حياة سعيدة هانئة. قبل زواجي بها انغرمت بالعديد من الصّبايا. فالله قد خلقهن وخلقنا كي نعشقهن ويعشقوننا. والتي يكون فيها نصيب، نتزوجها. وقد كنت شاباً مميزاً في أيام عِزّي. لم أكن مثل غيري من الشبان. فواحدهم، كان يكلِّم الصّبيّة منهن، فيفسِّد لها على رفيقاتها كي يتقرَّب منها. أنا، لم أكن أفعل ذلك. مرة عشقت ابنة خوري الضَّيعة. فكنت أغني لها أغنية اشتهرت بها بين أقراني. وهي تقول:

يا ريتني عطريَّة
عَشِبَّاك الخوريَّة
بلكي بتمرق الحلوة
بترمي السلام عليَّ

... ايه، وكانت أيَّام. وبعد أن تنقَّل القلب بين حلوة وأخرى لفترة من الزَّمن. وعندما أردت الزواج لم أجد قبالتي أنسب من المرحومة. كانت جميلة وخَلوقَة. بالإضافة إلى امتلاكها لبعض الأرزاق التي ورِثتها عن أهلها. كما كان لديها العديد من الأقارب يرسلون اليها الأموال باستمرار من المهجر. أعجبتها كما اعجبتني. لفيت عليها لفترة طويلة. خلالها جاء من يخبرني بأن ابناء خالتها، وكانوا من سكان إحدى القرى المجاورة، يريدون اختطافها كي تتزوَّج واحِداً منهم. حملت سلاحي وقمت بحراستها لفترة قصيرة، تم بعدها زفافنا. أحزنها كثيراً حرمان الله لها من الأطفال. فداوَمَت على رفع الصلوات وتقديم النّذور وزيارة الأماكِن المقدَّسة. لكن رغبتها لم تُستجاب. أما بالنسبة لي، فلم يؤثِّر بي ذلك الموضوع أبداً. ولماذا الأطفال؟! لَبَكة على غير فائدة! فإنهم يرحلون متى كبروا...

سافرت والمرحومة إلى المهجر حيث يوجد أقرباء لها. عشنا بينهم مدة. أذكر حادِثة طريفة حصلت لنا هناك. ذلك عندما أردت الانتقال من منطقة إلى أخرى فقصدت محطَّة القطارات كي أقطع تذكرة. كان ابن شقيق زوجتي برِفقَتي. تحرَّشَت بي العاملة التي كانت تقطع التَّذاكِر. وعَرَضَت عليَّ أن ترافقني في تلك الرِّحلة. قَبِلت عرضها السَّخي ذاك بكل غِبطة. عاد ابن أخ المرحومة إلى بيته ليخبر عمَّته بما جرى أمامه في المحطة. فضحكت ملء فمها وعلَّقَت بالقول:" فليَذهَب ويتسلَّى! فهو حتماً سيعود أدراجه إليَّ. هاه! وأنا إن ذهبت وتسلَّيت سأرجع اليه حتماً!

أحبّ الكثيرات قبلي. لكنه عندما أراد الزّواج اختارني دون الصّبايا أجمعين". "ايه... رحمها الله كم كانت كبيرة العقل". أتم العجوز جملته الأخيرة. ثم نهض متّكئاً على عصاه ليأتي بصورة تُمَثِّل رسم المرحومة. رأيتها وأبديت إعجابي بها. ثم ترحَّمْت عليها وأبديت للرجل بالِغ دهشتي من حال هذه الدنيا"...

عجوز آخر يروي قائلاً بأنه كان صغير السِّن عندما تزوج من ابنة عمه التي كانت تلاحقه. فتشبك يدها بيده لرقص الدبكة في المناسبات السعيدة وفي الأعياد. وتُدَيْدِبه وتتدلل عليه إلى أن غمزت الصنارة ووقع في شِراك حبها. فخطبها لمدة سنة تجهز لها خلالها ودبّر أموره. وهو لا يزال يذكر يوم عرسه جيداً. فلقد ضحك عليه الناس لأنه كان أمْرَد الوجه.

امرأة كانت كبيرة اخوتها تذكر ان والدها لم يوافق على تزويجها من أحد. فكبرت في البيت وأصبح عمرها ثمانية وعشرون عاماً ولا تزال تحت نصيبها. فلقد ماتت امها مخلِّفةً وراءها عائلة كبيرة بحاجة إلى خدمة. لذا، كان جواب ابيها للعرسان الكُثُر، بأنه لا يستطيع ان يفرِّط بالفتاة. ذلك كي "لا يخرب بيته في سبيل إعمار بيوت الآخرين". استمرت الحال على هذا المِنْوال حتى طرق باب الدار ابن خال الأب طالِباً القُرْب. رضي الأب بقربيه صهراً، لكن الإبنة مانعت. فالعريس كان كبير السن. لكن والدها أقنعها به بعد أن أغراها بجهاز ثمين.

سيدة أخرى باحت بأنها عاشت العمر كله تخاف من زوجها وتخشاه. فلقد تزوجها رغماً عن إرادتها وإرادة امها. فوالدها كان مهاجراً، وليس من رجل في البيت يحمي نساءه من ظلم الأقارب وطمعهم. خاصة وان الأعمام والأخوال كانوا أيضاً في المهجر:" كنت وإياه في المدرسة سوياً. وكنا أعداء لا نكلِّم بعضنا!" تقول السيدة. وتكمل:" بعد أن كبرنا، جاء طالِباً يدي من أمي فارِضاً إرادته عليها. ذلك بعد أن تهدد وتوعد. فقد كان قريباً لأبي. بينما أمي "غريبة" خطبها والدي وجاء بها زوجة له من قرية قريبة. لكن أقاربه ظلّوا ينظرون اليها وكأنها ليست منهم! لذا، لم نجد واحداً يقف إلى جانبنا أو يردعه عنا، إرهابه لنا أرجف قلوبنا. نهار عرسي كان مليئاً بالتّعاسة والشقاء. لم تكن الفرحة فرحة... بل كانت ساعة بكاء وحزن ودموع...".

قصة أخرى تؤكِّد بطلتها بأنها لم تكن محجوزة لزوجها، بل كانت محجوزة لأخيه. خطبها له أهله منذ الصِّغَر. وانتظروها لتكبر فتُزَف اليه. لكن شقيقه أحبها واستحلاها، فأرادها لنفسه. عَلِق الشر بينه وبين أفراد عائلته، لينتصر عليهم ويخطب خطيبة أخيه بعد أن هددهم بالقول:" أو العروس أو الموت"!

" بنات البيوت ما بتبور! بينسَأل عنها". تفتتح إحداهن الحديث متباهية. " فأنا إبنة بيت كبير. أرسلني أبي إلى المدرسة فتعلَّمت. لما توفي إلى رحمة الله، وقعت مسؤولية أمي وإخوتي على كاهلي. لذا، كرهت أن أتزوج وأتركهم... مرة ذهبت لزيارة بنات خالتي عند العصر. لكنني لم أمكث طويلاً. فقد كان عليَّ أن اكنس الفناء الفسيح أمام بيتنا وأمرح مصاطبه بالطين. تحمست قريباتي فرافقنني للمساعدة. الهانا العمل عن ملاحظة الشاب اللاطي خلف سياج الياسمين. حيث كان يراقبنا عن كَثَب.

ذلك الشاب كان خطيباً لإبنة عمّي. بعد وفاة أبي أصبح عمي ذاك المسؤول عن عائلتنا. خطيب ابنته لفى عليهم من قرية ساحلية بعيدة. لما رآني تلك العشية أعجبته كثيراً فغيَّر رأيه بالعروس! غاب لفترة، ثم بعث من يشرح الوضع المُسْتجِد لوالد العروس. ويخطبني أنا عوضاً عن الخطيبة الأصلية! جرت الأمور كما رغب العريس. واقتنع الأهل جميعهم بما فيهم أمي بتزويجي له. ذلك كله، ولم أكن أ‘لم بشيء مما يجري بشأني! ارتجفت حنقاً وفزعاً عندما جاء من يخبرني بأنهم سيعقدون قرآني ذلك النهار. وعرفت بأن المياه تجري من تحت قَدَمَي! قصدت منزل عمي على التَّو. حيث كانت والدتي فسمعته يحدِّثها بالقول:" لا عليكي يا امرأة اخي. فهي مثل بناتي. وإن كانت قرية عريسها بعيدة. سأواظب على زيارتها باستمرار". " إلى أين تنوي زيارتي، يا عمي العزيز؟!" سألته والدموع تسيل غزيرة من عينَي. ثم تابعت:" تريدون تزويجي إلى "الغربة"؟! حرام عليكم أنا لا أريد الذهاب إلى هناك. لن أتَغَرَّب. أريد البقاء إلى جانب أمي واخوتي".

" قرية عريسك فيها زيت كثير وتين كثير". بادرتني امرأة عمي بالقول. فأجبتها بحزم " اسمعي. سأشرب السّم أو ارمي بنفسي في البئر إن انتم أرغمتموني على هذا الزواج! هل زادت عليكي أسعار الخبز من كثرة تناولي إياه؟! أو تراكي تجدينني دائمة الجلوس إلى طبق طعامكم؟!" عندها، هدّأ عمي من روعي. فطَيَّب خاطري بكلام رقيق ووعدني خيراً. ثم جمع الأعيان من أقاربنا كي يتشاور معهم في الحل المناسب لتلك الأزمة. فزواج الفتاة إلى "الغربة" لم يكن بالأمر الهين. حُلَّت المسألة بذهاب وفد من أهالي القرية إلى الساحل. حيث زاروا قرية ذلك العريس، فقدموا الاعتذار اليه والى أقاربه.

بعد مضي سنة أو اكثر. كان زوجي قد عاد من المهجر باحِثاً لنفسه عن عروس ملائمة، وكان يبتغي الاقتران بفتاة متعلمة. دله أحد اصدقائه عليَّ. وكان ابن قرية مجاورة. فقصد منزل عمي وكان معه جِفْت صيد. حياه عمي عن بُعْد سائلاً إياه إن كان صيده وفيراً. فأجابه:" إنشاء الله سيكون الصَّيد وفيراً بنظركم. فِعلاً أنا اقصدكم للصَّيد". اشتلق عمي على نيّة الشاب. فدعاه للجلوس وأكرم وِفادته. دار الحديث وطلب الصياد يدي فرحب عمي بسرور بالغ وأجابه:" أنتم من عظام الرَّقبة. لكن عليَّ اولاً أن أشاور والدتها بالموضوع". فرحة أمي كانت عارِمة خاصة بعد أن علمت أن الشاب قد جمع ثروة لا بأس بها في المهجر.

كنت أنشر غسيلي في أحد الأيام عندما رأيت فرساناً ثلاثة قادمين إلى دارنا على ظهور خيولهم. نظرت ناحيتهم فرأيتهم ملثَّمين. دخلت إلى المنزل قبل وصولهم ببرهة. كانت الهدايا التي يحملها أحدهم كثيرة. صناديق من الفاكهة، علباً من الحلوى،... فاشتلقت عندها إن في الأمر سِراً وقلت لأمي:" هاه، أتريدين تزويجي؟!" أجابت بأن جميع الصَّبايا ستحسدنني حتماً. فالعريس سيأخذني معه إلى المهجر. كما انه سيُشَنْشِلني بالمصاغ... تَلَبَّكْت كثيراً، لكن الرجل غني مقتدر هذه المرة! لذا، لم أوافق ابن خالتي على رأيه عندما جاءني عارِضاً عليَّ الفرار وإياه في إحدى الليالي المقمرة...

تمَّت الخطوبة وجاء الجهاز... ثمانون ليرة ذهبية دفعها الخطيب ثمناً لمصاغي! عقد ودزينة من الأساور... فساتين من الحرير والجوخ والمخمل والصوف... بياض مخَرَّم... صندوق وخزانة... تخت من النحاس له ناموسية... فستان عرسي كان من الحرير "الست كروزا" والدانتيل الغالي!

قبل العرس بيوم، جاءت بعض صبايا من قريبات العريس يحممنني. فحمام العروس كان من واجبات قريبات العريس. حيث تُسَخَّن المياه في "حِلال – جمع حلّة-". ثم يُضاف اليها الطِّيب قبل أن تُسْكَب في طست –طشت- تجلس في وسطه العروس. ولحمَّام العروس اهزوجة تقول:

يا مْحَمَّمِة بالقمر غَيْم السَّما لِيْفِك
سَكْبات دَمع السَّحَر خِلقِت لتنظيفك
والقَمَر نوره انْبَهَر في وقت تِنْشِيفِك
وبْنَيَّة وِقْفِت غَفَر عالباب لِيليَّة...

أما العرس، فلقد استمر لثمانية أيام بلياليها. جاء اقارب العريس إلى قريتي فتباروا وأقاربي في "قَيم الجرن". فرفعه أحد الشبان من أقاربي أولاً، ثم رفعه شاب يقرب للعريس. ركبْت الفرس المزَيَّنة ورقص الشباب بالسيوف أمام موكبي طِوال الطريق التي قطعتها من قريتي إلى قرية زوجي. من الأغاني الكثيرة التي أنشدها الجَمْع المحتفل في ذلك الأسبوع أذكر واحدة تقول:

طالعة من دار أبوها
وطالعة تْكِشْ الحمام
ضحكتها بتعمِل غرغرغر
وشَنْيورا بيضرب سلام...

أما الزَّغاريد التي تبارت النساء في قولها، فأذكر منها ما قيل لي عند وصولي إلى دار العريس. وهي:

آويها... أهلاً وسهلاً في قَدَمكم
آويها... وشَعْشَعْ نور بيتي من قَدَمكم

آويها... وأرض اليابسة الدَّاسا قَدَمكم
آويها... كِبِر العِشب فيها وانتشى...
زغرودة أخرى تقول:
آويها... كَف أبيضاني مَرشوش بحِنَّة
آويها... طلبت من خالِقي العريس يتهنَّى
آويها... يطَوِّل عميرِك تُقْضي هالزَّمان عِنا...
أم العريس أطلقت زغرودة للترحيب بالمشاركين في الفرح فقالت:
آويها... أهلا وسهلا وحِيتونا
آويها... وغمرتوا الدِّني وشرَّفتونا
آويها... انشا الله تجوزوا بناتكن وبنينكن
آويها... ونزوركن بالفرح متل ما زرتونا...".
عجوزان هما رجل وامرأته تذكرا سوية قصة زواجهما. وهي قصة طريفة. فوالِد الرجل كان قد تزوج من والِدة الزوجة بعد موت أم عياله. وأم الزوجة كانت مهاجرة مع أفراد عائلتها إلى البرازيل. غرق المركب الذي كان يقلّهم بينما كانوا في طريق عودتهم إلى الوطن. توفي في ذلك الحادث جميع أفراد العائلة ولم ينجو سوى الأم وابنتها الصّغيرة. بعد مضيّ سنوات على تلك الكارثة، بان والِد الرجل عريساً للأم فتزوجت ثانية. تاركة ابنتها في عِهدة أقارب زوجها السابق. أشقّاء الأم كانوا في المهجر، بعد زواج شقيقتهم حاولوا أن يأخذوا الابنة إلى حيث هم. لكن الفتاة خافت ركوب البحر ثانية. وفضَّلت البقاء في قريتها. فداوم أخوالها على مراسلتها وإرسال المال والهدايا لها. لكن العلاقة بينها وبين أمها لم تكن على ما يرام. حيث كان بعض الأقارِب يؤلِّبون الفتاة باستمرار ضد والدتها التي تزوجت وتركتها وحيدة.
كبرت الفتاة اليانعة فأصبحت صبيّة في سن الزواج. أُرسِلَت لتتعلم الخياطة لدى امرأة من جيران والدتها. نفعت وساطة تلك المرأة بين الأم والابنة التي أصبحت تزور الوالدة متى أرسلت في طلبها. تطوّرَت العلاقة بشكل إيجابي فأصبحت الفتاة ترافق عائلة زوج أمها إلى البيادر فتُمضي معها فترة أسابيع هناك. مع الوقت، طلع في بال زوج الأم أن يخطب الابنة لثاني أولاده. لكن زوجته لم توافق لأن الفتى كان صغير السن. عندها، أقنع الوالد كبير أبنائه بالزواج من الفتاة. لأنها تناسب بيتهم أكثر بكثير من الحسناء التي كان الابن يلفي عليها... ودار الكلام بين الأقارب. بعضهم وافق وبارك. وبعضهم الآخر انتقد الموضوع وأعلن الاحتجاج بأن الفتاة قصيرة القامة صغيرة السن.
وبعد أخذ ورد، زوجت الأم ابنتها لابن زوجها وجلبتها كنّة لها لتسكن وإياها تحت سقف واحد. ذلك الزواج لم يكلِّف العريس درهماً واحداً. " كان في جَيبي خمس ليرات بقيت كلها معي!" يقول الرجل ضاحكاً مسروراً، اما امرأته فتوضِح معلِّقة " المال معي كان دائماً كثير. لم ينقطع أخوالي عن إرساله لي أبداً. اشتريت لنفسي بعض الفساتين، فأمي كانت حماتي وليس هناك مَن يعيِّرني أو يعَيّب عليَّ. أمضيت العمر على راحتي. ربّت لي والدتي كل أولادي. وضعت خمسة أطفال جاءوا كلهم إناث في السنوات الأولى من زواجي. وكانت الصدمة تكبر كلما تكررت. فالصبي هو من يفتح البيت! داومت على الصلوات وتقديم النّذور والعمل بشتى الوسائط حتى رزقني الله بتوأم من الصبيان دفعة واحدة. سبحان الله! فالصبي رجوة دائمة لأهله، أما البنت، فمن تراه يعلم أين يصبح مأواها؟!"
زوجان آخران تذكرا بمرح وفرحة قصة الزفاف. فالذي جمع بينهما كان غراماً خجولاً في عهد الطفولة! وتفاهماً حين آن أوان الزواج. "عندما كنا صِغاراً" تقول المرأة، " كان يُلاقيني فيهمس في أذني كلمة أحبك. في كل مرة كنت اسأله إذا كان حبه لي حقيقة أم كذباً! فيعطيني كمشة من حبات الزعرور آكلها وأطمئن. لكن، بعد أن كبرت ارتبطت بعلاقة حب مع شاب آخر. مات ذلك الحبيب مخلِّفاً إياي وحيدة وحزينة. عندما أردت الزواج لم أجد قبالتي إلا حبيب الطفولة. عُقِد قراننا ولم أندم يوماً على ذلك".

أما زوجها فيحدِّث:" في أيام شبابي أُغْرِمت بحسناء من الساحل. كنت ألفي عليها بشكل يومي. فأقطع الطريق ماشياً على قدَمَيّ. ذهاباً وإياباً! فالحلوة التي عشقت كانت تستأهل عناء التعب كله. قامة جميلة وعينان سوداوان... شعر خرنوبي طويل وصلت الجديلة منه إلى حد الخاصرة. أغنية واحدة كنت ارندح كلامها وأنا في طريقي ذاك لتخفِّف عني تعب المشوار:

مرْقِتْ عَلَيّ وهيي ومش هيي
رِمْيت بقلبي علّة مخفية
ولو إنو بيروت قريبة لَيي
تاحاكي الحلوة بْغَمز العيونا
يام الجدايل لَحَدْ الكاحِل
نحنا من الجبل وانتو من الساحل
وان كان يا حليوة زرعكن ماحِل
من لحم كْتافي بقدِّملِك مونة...

كنت احمل للحلوة الساحلية الهدايا من منتوجاتنا الزراعية والأجبان والألبان... ذات يوم أطلت السهرة عندهم فدعتني أمها إلى المبيت. استضافوني في غرفة كانت الفتاة تحتفظ فيها بما تقتنيه من أدوات تجميل وعطور. رأيت عدداً مهولاً من الحناجر والقماقم المصفوفة والمرتبة. فصفنت مفكراً بقدرتي على ابتياع مثلها للحسناء متى تزوجتها؟! فأُصيبَت عاطفتي نحوها بصدمة أولى. تلتها صدمة ثانية عندما عقصت بعوضة قدم الحلوة. فعَلَت صَيحتها وركضت أمها على الصوت. ثم أسرعت تجلب المراهم تدلّك بها مكان العقصة! فكَّرْت حينها ملياً. فالزراقط والدبابير في قريتنا كُثُر. وما كنت ابتغي لنفسي سوى عروساً تقف إلى جانبي وتعينني. أنا الفلاح صاحب قطعان الماعز. فالتي لا تحتمل عقصة البعوضة، لن تستطيع احتمال العيش إلى جانبي. ودَّعْت الجماعة، وانصرفت مطرقاً... ولم أعد إلى زيارتهم ثانية. اما في القرية، فقد عدت إلى مناغشة حبيبة الطفولة. تزوجت منها فساعدتني على الدهر... وما شكت يوماً من تعب أو كلل".

الزوجة لا زالت تذكر "زغاريد وزلاغيط" كثيرة أُطلِقَت في يوم عرسها. والدتها افتتحت بالقول في العروس:

آويها... يا عروسي ويسلم هالمربيكي
آويها... وبعلبة الصايغ كان مخبيكي
آويها... وخسران يا بايع وربحان يللي مشتريكي

فأجابتها أم العريس بالقول:

آويها... وأنا أم العريس وأنا الفالحة
آويها... ومن كثر فرحي ما نمت ليلة مبارحة
آويها... ومن كثر فرحي بيقيت طالعة نازلة
آويها... وبخِّر تياب العريس وريحة المِسك فايحة...

هنا، وقفت عمة العروس ملعلعة الصوت بالقول:

آويها... ويا عروس أيش أكلت امك تاجابتك حالوة
آويها... أكلت القلب والمِعلاق والكِلوة
آويها... رح لبّسِك فستان يلبق لقامتك الحلوة...

فهبَّت أم العريس لتجيب عمة العروس بالقول:

آويها... ويا عريس ويا صندوق بْرَزَّاتو
آويها... وسبع باشاوات ما هزِّت أساساتو
آويها... ولمن يمشي بالطريق وترن ساعاتو
آويها... الشّرق والغرب تدعي بسلاماتو

فأجابتها أم العروس:

آويها... يا عروس لَبَّسْتِك الفستان والفستان يلبقلِك

آويها... وغزلان البَّر ما ينقلوا نقلِك
آويها... ومين متلِك ومين بعقلِك
آويها... وخِذِي زينة الشباب يا حِلوة بيلبَقْلِك...
واختتمت أم العريس الزلاغيط بقولها:
آويها... أنا غنَّيت ومِتلي ما حدى غنى
آويها... وبحارة عالية ومصمود العريس عنا
آويها... جوَّزنا كبير البنين وانشا الله بيتهنى
آويها... وعقبال اخوته تيضل الفرح عنا...
عرس آخر سمعت به تسبَّبت زغردة النساء خلال الاحتفال فيه بإشكال كبير. كاد يؤدي، لولا تدخُّل العقلاء، إلى مذبحة كبيرة بين أهل العريس وأهل العروس. العروس كانت سمراء اللون قاتمة البشرة. بينما العريس أبيض اللون أحمر الخدَّين أشقر الشعر. أم العروس كانت تنوي تزويج ابنتها لواحد من أبناء أخيها. وأم العريس كانت تنوي تزويج ولدها من إحدى بنات خالته. لكن الحب الذي جمع بين الفتى والفتاة، باركه أبواهما فتمَّت الخطوبة ثم كان العرس. والعريس لم يكن له اخوة أشقاء، بينما أبناء عمه ثمانية شبان أشداء "يأكلون رأس الحيَّة"!
كان الغيظ بادياً على محيا كل من أم العريس وأم العروس يوم فرحة ولديهما. افتتحت أم العروس الزغردة مطلِقة العنان لصوتها الذي صدح معبِّراً عما في نفسها من ضغينة. فقالت متباهية بجمال سُمْرَة ابنتها، هازئة من بياض بشرة العريس. مُسْتَكثِرَة فيه عروسه:
ايه، ولك الله مع السُّمْر ولو وِقْفوا بباب الدار
ايه، بيكشحوا البيض الشُّقر ولو كانوا زي قمار
ايه، وهاتوا الجِبن والعسل تنفصل الأسعار
ولك درهم من العسل بيسوى من الجبن قنطار!
سمعَت أم العريس حماة ابنها تتحدَّاها فوقفت شارِعَة باطها وقد استشاطها الغضب. بأعلى صوتها باشرت بالزَّغردة واصِفة ابنها الوحيد بأنه زينة أبناء عمه وأكرمهم. فأثارت سلفتها بالقول:
آويها... وحَيِّدْ وحَيِّدْ الله يخليه لأمه
آويها... يا طاعم العَيش يا زينة ولاد عمه
آويها... سمِّي عليه يا أمه سمِّي عليه يا اخته
آويها... وتْعَلَّموا يا شباب كِل الكَرَم مِنو...
ولم تصبر المرأة على أم العروس كي تجيبها. بل ألحَقَت ما قالت بزلغوطة أخرى تعتد فيها بقوة ولدها وغناه. قالت:
آويها... ما احلى العريس ما أحلى الجمع بداره
آويها... سيف ومْسَقَّط سِكينه بزناره
آويها... أنا أمه وبدي قوم بِشانو
آويها... ومشِّي صواني الذَّهب خَلفو وقِدّامو...
هنا ثارت ثائرة أم العروس فاشتبكت بالأيدي مع حماة ابنتها... وعرك القوم بعضهم ببعض... لم يتوقف العراك إلاّ بعد تدخُّل الوسطاء والمصلحين... تلك العركة أسفرت عن بِضعة مجاريح كانوا كلّهم من الأقارِب اللزم...
عجوز قهقه ليخبرني عن عرس طريف كان هو أحد المشاركين فيه. بدأ حديثه بالقول:" كان فهيم أبسط الشباب قلباً في القرية. غشمه غطَّى على كل مزيّة أخرى من مزاياه، فاشتهر بين الناس بإسم "بهيم". عندما أراد الزواج، دار على كل كبيرة وصغيرة من صبايا القرية. فلم توافق ولا واحدة منهن على الاقتران به. فهام على وجهه قاطعاً القرى الواحدة تلو الأخرى باحثاً عن العروس المنشودة. ظل على حاله تلك حتى وصل إلى قرية بعيدة توفق فيها بفتاة يتيمة فقيرة رضيت الاقتران به كي تتخلَّص من ظلم أقاربها لها. وكان اسمها "شملكان".

في يوم العرس، اجتمع أهل القرية وساروا مشياً على الأقدام قاصدين قرية العروس كي يجلبوها زوجة لفهيم. في طريق العودة، وقف الموكب للراحة من عناء السير بجانب نبعة ماء في ساحة من ساحات إحدى القرى. وكان عمِّي "نزيه" قد افتُتن بجمال العروس فقام بقيادة الحمار الذي حملها طِوال الطريق. لذا، فقد ألَّف أغنية علَّمها لنا، ودعانا إلى رقص الدَّبكة على أنغامها في تلك الساحة. حَمَّل العريس فهيماً "فوطة" لوَّح بها مُفْتتِحاً الرّقص والغناء في ذلك المكان. فهو من فَرط بلادة ذهنه لم يفقه أي معنى لتلك الأغنية التي علا صوته بها:

عالعْمَيِّمْ عَمْ الحرب

هِيي حلوة وجوزا كلب!

اغرورق الجميع في ضحك وساد هَرْج ومرج. وفهيم يرقص ويغنِّي لا يلوي على شيء. وضرب عمّي عِشْرَة مع العروس التي احمرَّ فخذاها من قرصاته... لم تضاين تلك المرأة مع زوجها سوى أسابيع قليلة. هشَلَت بعدها مفضِّلَة ظلم أقاربها لها على عِشرة فهيم. فهو لم يناديها يوماً بإسمها لأن ذاكرته لم تقوى على حفظه أو استيعابه. عندما افتقدها يوم رحلت جال على بيوت القرية سائلاً مَنْ رأى من الأهلين "أشمكان"! وكانت "شملكان" قد هربت بِقُجَة ثيابها إلى حيث لا يدري أحد...".

زواج الخَطْيفة من تراث القرية

أسلوب آخر للزواج يندرج ضمن تراث القرية في جبل لبنان. اعترفت به التقاليد والأعْراف وكان متَّبَعاً أيضاً. فالكَثير من الأحبَّة والعشَّاق لجأوا إلى "الخطيفة" عندما كان الأهل يمانعون الزواج. في بعض الأحيان كان الحبيب ينجح في الفرار بالحبيبة والاحتفاظ بها زوجة له. أحياناً أخرى كان أهل الفتاة يُعيدونَها بالقوَّة إلى منزل أبيها كي يتمّ تَزويجها إلى مَنْ يرتضونه صِهراً لهم.

هيفاء كانت عاملة في الكرخانة. رآها قاسِم لأول مرة بينما كانت في طريقها إلى العمل. فأُغْرِم بها غراماً شديداً. وقد كان فنَّاناً مُرْهَف الحِس رقيق الشعور. لا عمل لديه سِوى العزف على "الطنبورة". و"الطنبورة" آلة موسيقية قديمة. كان قاسم يحملها بين يديه ويقصد الكرخانة ليُشَنِّف آذان هيفاء بموسيقاه... سرى خبر ذلك الغرام المتفجِّر بين العمال والعاملات كما النار في الهشيم. ولم يمر زمن طويل حتى وصلت الأنباء إلى مسامِع والد الفتاة وأشقائها. فثارت ثائرتهم على الصَّبيَّة العاشِقة فأشبَعوها ضرباً وتأنيباً وعاقبوها على سوء سلوكها. انفطَر قلب العازِف لمّا عرف بالذي ناب فتاته. فقصد بيتها طالِباً القُرْب مبرهِناً على حُسْن نيَّته. لكن والدها طَرده من الدار مُهَدِّداً إيّاه متوعِّداً له إن هو وَاصَل مطاردته لها. مُعَيِّراً إياه بالطنبورة التي ما كان يملك من حطام الدنيا سواها.

اشتغلت المراسيل بين قاسم وهيفاء فرُسِمَت بينهما خطَّة للهرب. جمَعَت الفتاة بعضاً من ملابسها في صرَّة صغيرة. وتركَت البيت في إحدى الليالي المُقْمِرة. إلى حيث ينتظرها عازِف الطنبورة. الذي اختطفها إلى قرية قريبة حلاَّ فيها ضيفين على المختار. سأل المختار الحسناء إن كانت قد رافقت الشاب برِضاها. ولمّا أومأت له بالإيجاب رحَّب الرَّجل بهما. ثم دعى الفتاة إلى المَبيت بجانب بناته. وفي الصباح الباكِر، ترأس المختار وفداً ضمَّ أعيان قريته. ليتوجَّه وإيّاهم إلى دار والِد هيفاء. مُحاوِلاً تَجْليب خاطِره وكسْب رِضاه على ابنته كي يتمّ عقد قرانها على من اختاره قلبها بمباركته. فوَّض الوالد المختار بالتصرف المطلق في القضية. وكان العرس عامِراً في القرية المجاورة. لكن الرجل لم يصفح عن ابنته قَطّ. فجريمتها كانت كبيرة في نظره. كيف لا؟ وقد كَسَرَت كلمته وكلمة أشقائها. ولماذا؟! ذلك كله لتلحق بذلك "الأنْذَبوري" الذي أسْكَنها قبواً قديماً مُشَقَّقاً. فرشه بحصيرة عتيقة رثّة تحسَّن بها عليه أحد الناس.

عادت هيفاء إلى عملها بعد زواجها بفترة بسيطة. كي تكسب ما يسد رمقها ورمق عريسها الذي واظَبَ على فنّه فلهاه عن تدبير عمل يُعيل به زوجته. وعندما كان أحد يُعَيّرها بحالها، أجابته على الفور بجملة مفيدة اشتهَرَت بها: " اسمع يا هذا، لا تكلِّمني، فبيني وبين السماء ورقة سيكارة!!" ذلك كي تبرهن عن شموخها وكبريائها...

أما خطيفة "فضيلة" و "إبراهيم" فمشهورة جداً بين عجائز إحدى القرى. كان الغرام بينهما قوياً ملتهباً. لكن الشاب ترك حسناءه ليتزوج من أخرى كان بها عاهة جسدية مُستَديمة. فإمرأة "برهوم" ذاك كانت عوراء بعين واحدة. لكن إرثها شمل بيتاً مؤثَّثاً وبضعة قطع من الأراضي الزراعية. أعمى الطمع بصيرة العاشق فعقد قرانه على صاحبة الأملاك. تارِكاً فضيلة في حال يُرثى لها...

بعد حين، تقدَّم ابن عم فضيلة للزواج منها. لكنها حاولت المقاومة والرفض. فضغط عليها أهلها محاولين إرغامها بالقبول. أدخلت بعض الوسطاء، لكن والدها كان دائماً ينجح في إقناع أي وسيط بوجهة نظره. فما كان منها إلا أن عاودت الاتصال بالحبيب الذي كان قد رُزِق بطفلة من امرأته. لم يمنعه ذلك من التجاوب مع الحبيبة. فاختطفها إلى منطقة بعيدة حيث تزوجها بعد أن طلَّق زوجته.

ثار أهل الفتاة ثورة عارمة. فأنكروها وأقسموا على الانتقام منها إن هي تجرَّأت على الظهور أمام اعينهم ثانية. سنوات عديدة مرت ولم ينجح أحد من الأعيان أو الوسطاء في إصلاح ذات البين. مر زمان على تلك المرأة التي ماتت بعد عمر طويل لم تقوَ خلاله على تليين قلوب أهلها من ناحيتها... امرأة تذكر ان اولاد الحارة. أنشدوا أغنية خلَّدَت ذكرى ذلك الحب الذي جمع إبراهيم وفضيلة. كلامها يقول:

على دلعونا وعلى دلعونا
فضيلة وبرهوم رحلوا من هونا
طلعِت عالجبل تْحَوِّش حطبها
وكفيِّة حِبَّا تطيِّر قصبها
قولوا للحلوة مين الغَصَبها
ضبِّت ثيابا ولِحْقِت برهوما
وعلى دلعونا وليش دلَّعتيني
عرفتيني مجوَّز ليش حاكيتيني
إن عِرْفِت مرتي رح تِحْرق ديني
وتِجْعَل طلاقي عَجو الزَّيتونا...

خطيفة أخرى جرت أحداثها في إحدى القرى عندما رحل شاب فقير بإبنة أحد الأغنياء وتزوجها. فهو كان عاملاً في كرخانة يملكها والداها. وقد بادَلَت ابنة العِز تلك، ذلك العامل حبَّه. لكن والدها مانع في القبول به صهراً... فكان الحل في الفرار إلى قرية بعيدة والزواج هناك. بعد مرور أشهر ثلاثة، وجد الوالد الثري مكان العروسين. جمع أقاربه الكثر وقصد منزلهما المتواضع. حيث تكاثروا على العريس وهددوه بقتله وقتل عروسه وإحراق منزلهما، إن هو لم يطلِّق. وأعادوا المرأة ثم تزوجت من أحدهم كي "يسترها". لكنها لم "تُضاين" عنده سوى بضعة أشهر طلَّقها من بعدها. لتعود إلى منزل أبيها من جديد. فأجبرها الوالد على الزواج من آخر... فساءت صحتها وتوفيت بعد مضي وقت قليل...

أحد العجائز يروي حكاية "خطيفته" بفرح وغبطة. فلقد أمضى عمره بهدوء وهناء مع من اختارها قلبه. بعد أن نجح الوسطاء في عقد راية الصلح بينه وبين أهلها فوافقوا على الزواج منذ البدء. يقول الرجل: " كنت في الأيام الماضية ناطوراً للكروم. كانت الصّبايا تمرّ زرافات ووِحداناً من أمام عِرْزالي فأُمَتِّع بصري بالتَّصَبُّب عليهن. تلك الصَّبيَّة كانت طلَّتها الأبهى. كان قلبي يرحل برفقتها أينما كانت وجهة سيرها. أحببتها ونظمت في حسنها الشِّعر الكثير. الذي كنت أنشده بأعلى صوتي متى بانت عليَّ فتسمع وتتدلل... كان والِدها ملاَّكاً كبيراً. وما كنت أملك من حطام الدنيا سِوى "عصا الناطور". أحملها بيدي متنقِّلاً بين أرزاق الناس أحميها من السَّرِقة... مرَّة رأيت الحلوة ذاهبة إلى الكرْم بمفردها. لاقيتها مُلْقِياً عليها التّحية. أغْضَت حياء عندما التقَت نظراتنا. واحمرَّت وجنتاها كما الوردة الجوريّة. رقص قلبي فرحاً لأني عرفت عندها إنها تبادلني شعوري فأنشدت لها:

صَرَعْني الشَّوْق بِفْكاري لَحَدْكُن
ومكان البدر كيف اوصَل لَحَدْكُن
حْبَابي إن مِتّوا قَبلنا لَجعَل لَحَدكُن
ما بين سِوار عيني والضِّيا...
اجتمَعْت وإياها مرة في أحد الأعراس. رأيتها ترقص متنقِّلة بين الصَّبايا تلوِّح بمنديلها الأخضر الذي كانت تحمله بيدها. فشاركتها الرقص مغنياً ما فاضت عليَّ به القريحة:
كما المَنْديل بيَّدِّك أنا مِيل
يا كيف ما مالِت جْعودِك أنا مِيْل
جْعَليني في هِدِب عَيْنِك أنا ميل
والكِحل مِنْشَان غِنْجِك والغِوى...
ردّت عليَّ الحسناء يومها الغناء بغناء. فأنشدت لي بيتاً من العَتابا قالَت فيه:
عَتابا تِسْتْحِق المَدح وتْناي
يا مَرْكوبَك من ربوع الخَيْل وتْناي
شبَّهْتَك لَعَنْتر إبن شدّاد وتْناي
ويمامة تِتْبَعَك يوم الحِراب.
عندما قصدْت والدها طالِباً القرب، ردَّني خائباً وحبس ابنته في البيت. فاستعانت بأختها التي كانت واسطة خير بيننا. إذ انها نقلَت الرسائل والأخبار وساعدت على تنفيذ الخطة. في البدء، رفضَت حبيبتي الهروب برفقتي. لتعود وتَلين بعد حين. فرحت كثيراً عندما زفّت اليَّ شقيقتها ذلك النّبأ. فصفنت مُفَكِّراً بأبيات أرسلْتها لها مُرْفَقَة بمشروع الخطيفة. نظرت إلى الرَّسولَة وقلت:
يا حَلا سلّمي لي على إخْتِك نَبيها
سأليلي إنْكانْها بعقلها صارِت نبيها
يا حتى المؤمنة عافِت نبيها
وكرمال عيون الشباب تْفرض صلاة...
في الليلة الموعودة رحلت وحلوتي إلى قرية قريبة جمعتني بأحد أعيانها صداقة. توسَّط ذلك الرجل الصالح مع أقارِب زوجتي فأقنَعَهم بالرِّضى والتَّسليم لمشيئة الله. ولم أعقد قِراني على ابنتهم إلاَّ برِضاهم الذي جاء على مضض. لكنه وفَّر علينا العداوة والبغض. عاشت امرأتي معي بالفقر والقلَّة أول الأمر. لكنها لم تشكو يوماً. بل صَبَرَت وضحَّت إلى جانبي. حتى فرجها الله علينا أخيراً، بعد رحلة عمل غبت فيها سنوات إلى أحد البلدان. أذْكر جيداً، قبل رحيلي إننا مَررنا بفترة ضيق وعُسْر شديدين. وكانت زوجتي قد وضعت طفلنا الأول. عدت ذات مساء إلى الغرفة التي كنا نسكنها. فرأيتها جالِسة بثوبها الرَّث المُرَقَّع، يدها على خدّها وعيناها السوداوين سارحتين في وجه الطفل النائم. عِقدة الحزن كانت بادية على جبينها. أثّر منظرها ذاك في نفسي كثيراً فأنشدت لها:
يا حِلوة ابسُطي العِقدة عن جبينك وحلاَّيْ
وخِذي شرايين من قلبي اغزِليهن وحِلاَّيْ
والبسي منهن عبا وثياب...
ابتسمت لي عندها ابتسامتها العذبة. وعاتَبَتني مؤكِّدة إنها لا تريد ثياباً ولا عباءة. لكنني منذ تلك اللحظة كنت قد صممت على السفر لجلب المال وتحسين مستوى العَيش. عارضت امرأتي فكرة سفري وبكت. لكن غيبتي تلك لم تطل...
خطيفة أخرى رواها لي أحد العجائز ضاحكاً لطرافة الأحداث. فبندر كانت شابة قوية تبيع اللبن والجبن والقريشة والحليب. والدها كان معّازاً يُمضي معظم أوقاته في إحدى قمم جبل الكنيسة. في يوم تعرّفت الفتاة إلى عامل بسيط لفى إلى إحدى القرى من مكان لا يعلمه أحد. كان اسمه "متروك". إتفقت وإياه على الرّحيل سوية والزواج خطيفة لأنه لم يكن يملك قرشاً واحداً ليصرفه على العرس...

في الموعد المحدد كانت "بندَر" تنتظر العريس كي يمر ويأخذها على عين الماء. بينما هي على تلك الحال، مرَّ بها ناطور الكروم. ولمّا رأى القَلَق بادِياً على مُحياها سألها عمّا بها. فأخبرته بالقصة، وبأن متروكاً قد تأخّر عليها. أطرق الناطور قليلاً، وقد كان شاباً عازِباً فقير الحال. ثم رفع نظره إلى الفتاة عارِضاً عليها بأن ترحل معه هو فيتزوجها ويسترها في بيته. وأخذ يُزَهِّدها بمتروك ويقلل من شأنه في نظرها. ثم يرغِّبْها بنفسه ويعدها بحياة كريمة عزيزة... اقتنعت منه ورافقته. ولما جاء متروك إلى الموعد كان "الذي ضرب ضرب، والذي هرب هرب"...
خطيفة أخرى حصلت بإكراه الفتاة وإرغامها على الزواج بفتى يهواها، عندما لاقاها مجموعة من الشبان المسلّحين وهي في طريق عودتها من الكرخانة إلى البيت. حملوها على ظهورهم وساروا في الحرش حتى وصلوا بها إلى حيث ينتظر العاشق على أحر من الجمر. كانت لتلك الصّبيّة عمة قوية اسمها "بِهْجِه". هالها ما ناب ابنة أخيها فصمّمت على الانتقام. حمَّسَت زوجها وبعض من الأقارِب. فحملوا سلاحهم وقصدوا قرية الخاطف، أشبعوه ضرباً ثم حملوه ورموا به على حافة شوار عال فتكسرت عظامه. أخذوا ابنتهم وعادوا بها إلى عمتها التي تدبرت لها عريساً مناسباً زوجته لها بعد حين...
أما الحادثة التي كادت تؤدي إلى حرب اهلية في إحدى القرى فقد جرت أحداثها كما يلي: خطب شاب من سكان الحارة الفَوْقا، فتاة جميلة من قرية مجاورة. قبل موعد العرس بيوم واحد هربت خطيفة مع حبيبها. والحبيب كان من سكان الحارة التَّحْتا في قرية خطيبها. بعد تسَّرُب الخبر إلى آذان العريس وأقاربه. نبشوا سلاحهم المُخبّأ في مَعاجِن الخبز وكوائر المؤونة وشرعوا بتنظيفه. عقدوا العزم على شن الهجوم واجتياح الحارة التَّحْتا وتهبيط جميع بيوتها.
إحدى النساء المتزوجات من الحارة التَّحْتا إلى الحارة الفَوْقا تسلّلت فنقلت الأنباء إلى أقاربها كي يستعدوا للمواجهة. لكن والد الشاب الخاطِف، وقد كان طاعناً في السِّن، تصرّف بحكمةٍ وعقل عندما أمسك يد ابنه وقصد منزل عريس الحارة الفَوْقا حيث يتجمَّع جيش المحاربين. عند وصوله، نادى على القوم بأعلى صوته: " يا أهل قريتي، هذا هو غريمكم فأنا بريء منه. اذبحوه واجعلوا منه عبرة. فهو يستأهل القصاص. "لن نأكل لحمنا بأيدينا كي ندافع عن شنيع ما فعل". عندها، أكبر والد العريس فعلة ذلك الأب. فأجابه بالقول: " لقد وصل الينا حقنا، يا رجل. في صباح الغد، تعزم أهل القرية أجمعين فتُحيي عرس ولدك. هذا هو جزاء موقفك الشجاع". وعاد أهل الحارة الفَوْقا كل إلى بيته يطمر سلاحه ويخبّئه إلى يوم آخر...
حُجِب الدم في تلك القرية بفضل رجاحة عقل ذلك الرجل، فلقد قابل الريح بالإنحناء. فالقتال بين أبناء القرية كان يؤدي إلى العداوة والأخذ بالثأر. وأسباب المشاكل، كبيرة كانت أم صغيرة، كثيرة متعدِّدة. نتركها بتفاصيلها إلى الفصل الرابع تُشْغل قسماً منه، هذا الفصل يتعرّض إلى الحياة العامة بجوانبها كافة. فيراقب القارئ عن كثب المفاهيم والمُعتقدات التي حرَّكَت الأذهان والسّلوك. ويدخل في سياسة القرية ومجرياتها... في التسلية واللهو وأساليبهما... في الأحزان وطرق التعبير عنها... في الطموح والتطلعات وطرق المحاولة للتأثير في مسار القدر على صعيد شخصي أو بالنسبة للآخرين.

الفصل الرَّابع: معالم الحياة العامة

القرية وتقاليدها المتوارثة

في أوائل هذا القرن، ميّزت المفاهيم التقليدية المتوارثة جميع اتجاهات الحياة العامة في القرية الجبلية. المعالِم الحياتية والإنسانية حكمتها قوانين وأعراف اجتماعية غير مكتوبة. طبّقها القرويون بشكل صارم وأنشئوا صِغارهم عليها. فسيَّرَت التقاليد نمط العيش الرتيب يوماً بعد يوم. لتطبع بطابعها طموح القروي وتطلعاته، عِراكه مع جيرانه والأقارب، أساليب تعبيره عن الحزن، طرق تسليته وأسباب لهوه، محازبته السياسية واستماتته في نصرة الزعيم الذي قد تنصِّبه الطبيعة عليه قائداً، فأبن هذا الزعيم يكون بدوره زعيماً بالوِراثة...
تعامُل القروي مع شتى ظروفه ارتكز على اسلوبه في التفكير. الذهنية القدرية حكمت التصرفات والسلوك، ذلك بمعزل عن الانتماء الطائفي أو المذهبي. فبالنسبة لكل قروي، ان الله وحده صانع الأقدار خالق السماوات والأرض. والإنسان عبد من عبيد الله، ما عليه سوى الطاعة والخضوع. فهو جلّ جلاله، له في كل أمر حكمة قد يفقه الإنسان سِرّها، وقد لا يفقه. ذلك لأن تفكير الفرد محدود، بينما قدرة الله غير محدودة. والإيمان واجب مقدّس، سواء في المصائب أو في المسرات. فالله يوفِّق من يشاء ويضرب من يشاء، وما على العبد سوى الرِّضى والصَّبر. فأيوب، عليه السلام، مِثال أعلى وقدوة حسنة لكل قروي مسلماً كان أم مسيحياً، سيرته تعلمها الكبار من الآباء فعلموها للأبناء، ذلك الرجل صَبَرَ صَبْراً جميلاً على كل ما ابتلاه الله به. فأعطى العِبرة للمؤمنين من القرويين. وقدَّسوا سِرّه على اختلاف مذاهبهم وشِيَعهم. فالذي يصبر على مُرِّ زمانه، لا بد له من الجزاء الحسن يُكْسِبه إياه ربه في آخر المطاف، والحكمة كل الحكمة تكمن في الاتكال المُطلَق على الله. لقد قالت الأمثال القديمة:
"مَن اتكل على الله ما خاب"،
"فاليُمِيتنا الله على الطاعة والعِبادة"،
و " ما يْسِير العَبْد تَيْسَيِّرو مولاه"،
أما الحِداء القديم قِدَم القرية في جبالنا يقول:
نِمْشي على ما يْقَدِّر الله
والكاتبه ربَّك يصير
يا حِلوتي وإن قَدَّر الله
يتغَيَّر اليوم العَسير...

مشيئة الأقدار تحدد المسار

فالإنسان إذاً، آلة تعمل بحسب مشيئة ربها. ولا سبيل إلى تغيير ما سطره القدر على جِباه مواطني القرى الجبلية. "فالمكتوب ما منه مهروب"، ومهما حاول الآدمي وسعى إلى صناعة قدره بنفسه فإنه حتماً لن ينجح. ذلك لأن الله وحده هو القادر على صناعة الأقدار سواء للأفراد أو للجماعة. لذا، فقد واظب القروي على لصيام والصلاة والاستعطاف والاسترحام. كما داوم على زيارة المنجِّمين العالِمين بخفايا الأقدار وخباياها. فهم وحدهم القادرون على التدخُّل وتقديم يد العون التي قد تؤدي إلى تغيير وجهة سير القدر إن باتجاه الأحسن أو باتجاه الأسوأ.
مُنَجِّم ممارس خبير، ضلع في كاره حتى ذاع صيته، يشرح قائلاً: " الطّب والهندسة والنجوم والفلسفة، تركَّزَت العلوم عليها منذ قديم الزمان. علم النّجوم هو الأسمى، الأعلى مرتبة، والأكثر تعقيداً. إنه علم كَوني اشتهر به الهنود واليونان والعَرَب. شرحه بطليموس الحكيم في مؤلفه "الماجسطي" Almagest . كما ذكره "إخوان الصّفاء وخلان الوفاء في رسائلهم. وترك فيه أبو معشر الفلكي مخطوطات عديدة.

للنجوم والكواكب السيارة حركات وأوضاع تتقلَّب لتسيطر على الساعات والأيام والسنوات والبشر. فتأتي الأوقات بعضها "سعيد" وبعضها "نحيس". الطفل الذي يطل إلى الدنيا في ساعة سعد يلازمه الفأل الحسن أينما أدار وجهه. أما الذي يولد في ساعة نحس فهو حتماً موكوس. يلازمه سوء طالعه فلا يكون من نصيبه سوى الحظ العاثِر وبئس المصير أينما اتجه! الكواكب السعيدة هي: الشمس، القمر، المشتري، والزهرة. أما "النحيسة" فهي: زحل والمريخ. أما عطارد، فإنه كوكب دائم التأرجح بين السعد والنحس. كل ما في هذه الفانية من شؤون وشجون تقرره دورات هذه الكواكب وحركات سيرها. نأخذ الحروب مثالاً على ذلك فنجِد بأن المريخ يدور دورته ليجدد نشوبها مرة كل عشرين سنة.

ارتكاز الكائنات قائم على أربعة عناصر لا تتبدّل. وهي: الماء، الهواء، النار والتراب. تُقسَم الأبراج الفلكية عليها لتقع في أربع مجموعات:

المجموعة المائية وتضم برج السرطان، برج العقرب، وبرج الحوت.

المجموعة الهوائية وتضم برج الجوزاء، برج الميزان، وبرج الدلو.

المجموعة النارية وتضم برج الأسد، برج الحمل، وبرج القوس.

المجموعة الترابية وتضم برج الثور، برج السنبلة، وبرج الجدي.

يحَدِّد الفلك الحظ، والطِّباع، والتناغم في العلاقات البشرية. فالترابي ينسجم مع المائي لتُثمِر العلاقة بينهما كل الخير. والناري ينال افضل نتيجة في حال التقائه بالهوائي. طالما يقصدني الناس لاستشارتي فيما يختص بعلاقاتهم الإنسانية والاجتماعية. مرة جاءتني امرأة تطلب النصيحة بشأن عريس تقدم لخطبة ابنتها. أجريت حساباتي لأجد بأن برج الفتاة ترابي، وبرج الشاب ناري. والتراب لا يلتقي والنار أبداً. أشرت على تلك السيدة بالتّعقل وصرف النظر عن الموضوع برمّته. لكن الحسناء التي أعمى الغرام بصيرتها هزأت مني ونعتت والدتها بقلة العقل! تزوجت لتعيش مع زوجها سنة واحدة افترقا من بعدها، بعد طلاقها زارتني والدموع في عينيها معلنة عن الندم الشديد! واعتذرت إليَّ آسفة على تسرّعها بالإقدام على خطوة كنت قد حذرتها منها.

علم النجوم إذاً علم حيوي دقيق يتعلق بحياة الإنسان على الأرض، بشكل مباشر، لكنه ينطوي على وجهين: خَيِّر وفاسِد، المُنَجِّم الصالح لا يتعامل إلاّ مع الأشراف من ملوك الجان. أما المُنَجِّم الطالح فاتكاله على قبائل سفلية مؤذية من العفاريت الرذيلة. فيعمل في سبيل الأذية ليجمع ثروات طائلة. كما انه يوجد الكثير من المدَّين الدخلاء الذين يستغلّون الكار على غير دراية، طمعاً بالمال الذي يسلبونه من السُّذَج وبسطاء القلوب بعد الإيقاع بهم".

يتميز المُنَجِّمون العاملون في سبيل الخير برفضهم للمال أجراً مقابلاً لخدماتهم، فهم يكتفون بسماع دعاء أو ابتهال إلى الله كي يحفظ أبناءهم ويكثر عليهم الخير. فتطمئن نفوسهم لأنهم خدموا محتاجاً ضعيفاً نكَّد عليه عيشه أحداً من اللئام. بعد أن تعامل مع شيطان أو مارد سلَّطه عليه!

وللشيطان هذا شِعر طريف يعلِّم من يرغب من القراء على ممارسة السحر الأسود! ذلك في سبيل استجلاب حبيب يرفض الوصال! فالكلام المنظوم المُقَفّى يشرح أسلوباً يتبعه المُنَجِّم كي يضغط على إرادة الإنسان. ويجبره على فعل ما ليس في نيته القيام به! وهو يقول:

إذا كان من تهواه عنك بعيد
وأنت في الديار وحيد
فاكتب له، يا صاح، اسم مطهر
وذلك في سراج يقيد
ثلاث عينات وجيم مثلها
وثلاث واوات تماماً تَلود
وثلاث ألفات ملاح صُفِّفَت
ومن بعدهم دال عكس قعود
ووكِّل بهم الشيطان فهو غريمها

يأتيك بمن تهواه وهو شديد!!!
مُنَجِّم مسن يروي حادثة طريفة حصلت له مع أحدهم منذ زمن بعيد. فيُحَدِّث بالقول:" كنت مجتمعاً إلى عدد من أهالي قريتي امضي وإياهم سهرة شتوية في أحد المنازل. دار الحديث ليشمل مواضيع مختلفة متشعبة كان آخرها علم النجوم. فاسترسلت في الكلام محاولاً شرح بعض الأسرار للحاضرين. والكل صاغر يستمع بكل جدية وانتباه. لكن أحد الحاضرين أدهشني حين قطع عليَّ الكلام، شارِعاً باطه قائلاً بصوت جلي مرتفع: "كفانا يا صاحبي ترّهات! صنعتك وعلمك ما هما إلاّ ادّعاءات باطلة وشعوذة! يمارسها كل من يطلب لنفسه أبهة زائفة ومجداً باطِلاً...".
حاولت جاهداً تبديل رأي ذلك الرجل فما أفْلَحْت. تضايقت كثيراً وشعرت بالحرج. تملّك بي الغضب فوقفت قاطِعاً سهرتي تلك، مُهَدِّداً إياه متوعِّداً له بالقول:" اسمع يا هذا! سأنصرف حالاً إلى بيتي كي أقوم بما ينكِّد عليك! سترى ما لعلم النجوم من سلطان! سأمزِّق كتبي كلها إن أنت تمكنت من الرقاد هذه الليلة! لا بدّ لنا من المواجهة ثانية!."
خرجت من المكان مُسرِعاً كي لا يتمكن أحد من اللحاق بي. وصلت داري فدخلتها، لكنني لم أقم بأي عمل مؤذٍ حيال ذلك الرجل. فأنا ما قصدت من كلامي سوى إخافته كي أحفظ ماء وجهي أمام جمهور الساهرين... وكم كان فرحي عظيماً عندما رأيته واقِفاً بباب الدار بعد منتصف الليل بقليل. وقد كان مُمْتَقِع الوجه مُشتَّت الأفكار... ما إن فتحت له الباب حتى بادرني قائلاً:" إرحمني يرحمك الله! لم أجد إلى النوم سبيلاً، أطْلِق عني سحر نجومك كرامة لجميع الأنبياء! لن أعارضك بعد اليوم. علم النجوم حقيقة ثابتة. إني أشهد بذلك!" هدَّأت من روع الرجل وأكدت له بأنني عذرت سوء تصرفه. لكن شيئاً لم يقنِعه بأن وساوِسه وحدها أقلَقَت راحة باله فمنعت عنه الرقاد. ومنذ ذلك الحين أصبح يزايد عليَّ في الحديث عمّا لِعِلم النجوم من أهمية وشأن...".

عالم الغيب: غرائب وعجائب

قصص وقصص سمعتها من أفواه العجائز تؤكِّد إيمانهم المُطلق بما للتنجيم من قوة وبأس. الطّمع والحسد والغرام شكّلوا حوافِز أساسية ورئيسية كي يحارِب القرويون بعضهم بعضاً بسلاح السحر والسَّحرة. أرملة عجوز لم يرزقها الله بأولاد من المرحوم تتطرَّق إلى الموضوع بمرارة وحسرة. ذلك بعد أن تتضرَّع إلى العلي العظيم كي يبطش بالحساد المبغضين. فيريها بهم يوماً أغبراً مشهوداً يشفي غليلها. "من افترى علينا ليس ببعيد عنا، بل إنهم اقرب الأقرباء! فليعرقل الله خطاهم أينما اتجهوا!" تقول المرأة، تلتقط دمعة ثم تُكْمل:
"تزوجنا بعد حب وتفاهم، عشت العمر اقاسِمه الأفراح والأتراح. صفو الحياة لم يعكِّره سوى عدم إنجابنا. لم تكن لدي القدرة على الاحتفاظ بالجنين بعد حملي إياه سوى اسابيع قليلة. اسقِطه بعدها لتدخل التعاسة إلى قلبي ويكبر الهم. لم أترك وسيلة إلاّ وعملت بها لكن على غير فائدة.
في أحد الأيام ظهر السبب ليبطل العجب. كانت عمتي في زيارتنا. أرادت الشرب بينما أنا منهمكة في إعداد القهوة. توجَّهَت بنفسها إلى الجرة لتملأ الطّاسة بالماء. لكن الهلع تملكها حين فوجِئت بالدم يخرج أحمراً قانياً من فوهة الوعاء! ذُعِرت بدوري وتوجَّست ريبة ممن عساه قد يكون عبّأ جرّتي بالدم؟! نصحتني عميتي بالذهاب إلى أحد المُنَجِّمين. وحملت تلك الجرة المشؤومة لتخفيها في مكان لا أعرفه.
وفي صباح اليوم التالي، بكَّرْت والمرحوم في الذهاب إلى القرية البعيدة حيث يقطن ذلك المُنَجِّم. عجباً لقدرة ذلك الرجل! فلقد أطلعنا على السِّر كامِلاً بعد أن كشفه بحذاقة ومهارة. ذلك الدم، كان دم خروف رضيع ابن يومه، ذُبِح بعد أن قرأ عليه أحدهم كلاماً سِحرياً شديد الفعالية. لتُمْلأ جرّتنا بدمه فتُزْرَع الحسرة في قلوبنا.
كتب لنا ذلك المُنَجِّم الطّيب حِجاباً يمنع عنا كل أذى مستقبلي قد نتعرّض له. لكنه أكَّد بأنه لا علاج لحالة عدم إنجابنا. فالسِّحر الأسود كان بائناً ولا سبيل إلى محاربته... آه!، وهكذا توفي زوجي بلا وريث يحمل اسمه. أملاكنا كلها سوف تذهب إلى الأقارِب بعد وفاتي. ها أنا ذا أعيش وحيدة

اليوم. فلا ابن يطرق بابي، ولا حفيد يلعب في الدار. إنها نغصة محرقة. لكن الله لن يسامحهم، أليس كذلك؟!".
سحر رديء آخر لاحق عائلة أخرى فقطع نسلها كما تقول الحكاية التي ترويها بحزن بالغ شقيقتان تتشِحان بالسواد. وهي حقاً تدعو إلى التأثر والأسف. بدايتها قديمة العهد ترجع إلى أم وأب توفيا منذ عشرات السنين، ذلك الرجل وتلك المرأة عاشا حياة رغيدة مترفة في بادئ الأمر. رزقهما الله بولد بِكر بالإضافة إلى الفتاتين. ترعرع الأولاد في كنف أهلهم على احسن ما يكون من بحبوحة وعناية. فالأموال كانت تتدفق عليهم من المهجر حيث يعمل بعض الأقارب. ويرسلون المبالغ على دفعات شهرية باستمرار وسخاء. لقد واظب الرجل على شراء الأراضي والعقارات لنفسه، والقطع الثمينة من المصاغ والقماش لزوجته. كما كان يؤمن لأولاده أفخر أنواع القوت واللباس... رفرفت السعادة على ذلك البيت، فكبر الصبي ورحل إلى البرازيل كي يشارك أقاربه في تجارتهم. كما أصبحت الفتاتين في سن الزواج.
بعد سفر الابن بفترة وجيزة، مرضت الأم مرضاً عضالاً عجز الأطباء عن مداواته. فلم تعد تستطيع ابتلاع الطعام والشراب واشتد عليها الهزال. كما اصفرَّت بشرتها بشكل مخيف... في أحد الأيام، بينما كان الزوج ساهياً يفكر بيأس في حالة امرأته، دخل عليه أحد جيرانه، ليُشير عليه خلال الحديث بالذهاب بزوجته إلى مُنَجِّم شاطر يسكن إحدى القرى البعيدة. اقتنع الرجل ولم يبطئ في التنفيذ، بل لام نفسه كثيراً لأن ذلك الخاطر لم يمر بباله من قبل.
وكم كانت نتيجة الزيارة إلى ذلك المُنَجِّم مدهشة وفظيعة! فلقد عاد الزوج إلى داره باحِثاً عن الأشياء التي دَلَّه عليها ذلك القدير العالِم بالغَيب. فوجدها كلها وفي الأماكِن التي عيَّنها له! ففي زاوية مُظلِمة من زوايا القبو، كانت قد طُمِرَت دجاجة سوداء، وفي الزاوية المقابلة طُمِرَت علبة مقفلة بغطاء مُحكَم. فتحها الرجل ليجد في داخلها قطناً مندوفاً، رُتِّبَت على جوانبها أبراً ودبابيس لتأخذ شكلاً دائرياً. في وسطها صُبِّرَت حيّة صغيرة سوداء!
تلك الأشياء كلها، كانت قد دُفِنَت في المكان منذ زمان بعيد، نبشها الزوج ورمى بها في مياه جارية، كما أمره المُنَجِّم. لكنه لم يستطع إلى محاربة السِّحر الأسود سبيلاً، كما تروي ابنتاه. وتفسران بأن المغزى المؤذي يتلخص بأن تخور قِوى ربَّة الدار كما الحية الخائرة في وسط الدائرة المقفلة من حولها، فتمرض وتموت. وأن ينقطع نسل العائلة فيموت الابن كما الدجاجة السوداء التي كانت قد خُنِقَت قبل أن تُدْفَن. وتُمنَع الابنتان من القدرة على الإنجاب في حال زواجهما. وبهذا، تنتقل الأملاك كلها إلى ذرّية الأقارب بعد وفاة جميع أفراد العائلة... جرت الأمور لتقع الأحداث مطابقة لتلك الخطة الجهنمية! توفيت الأم من جراء مرضها... ثم اختنق ابنها غرقاً في البحر حين كان في طريق عودته إلى الوطن على متن إحدى البواخر. ثم توفي الأب بعد سنوات تارِكاً كل واحدة من ابنتيه في عِهدة زوجها. لكنهما لم تتمكنا من الإنجاب أبداً. مات زوج الأولى بعد المرض، ثم طُلِّقَت شقيقتها. وهما تعيشان اليوم وحيدتان في دار كبيرة تفتقر إلى الأطفال والمسرَّة. الخيبة الظاهرة على الوجهين الحزينين مقرونة بنظرة فيها تساؤل عميق:" هل تتسامح السماء مع من خولت له نفسه إلحاق الأذية بعائلة كانت سعيدة هانئة كلها رجاء في يوم من الأيام؟!".
أما الرواية الغريبة التالية، فقد جاءت على لسان إحداهن. وهي تقص من خلالها مأساة شاب من جيرانها. جرده السِّحر الأسود من نشاطه وحيويته وحياته. فكامل، رحمه الله، كان موفور الصحة مفتول العضلات شديد البأس. أُغرم بحسناء جميلة بادلته شعوره بأحسن منه. فتاة أخرى كانت تهواه فتريده لنفسها، لاحقته محاولة بشتى الطرق استمالته إليها. لكن جهودها ذهبت أدراج الرِّياح. لأن الشاب كان مخلصاً وفياً لفتاته. وقد خطبها حالما تجمَّع لديه مهرها الغالي. بعد إعلان الخطوبة، أعمت الغيرة بصيرة الفتاة الأخرى. فما كان منها إلاّ أن زارت أحد المُنَجِّمين لتفعل فعلتها الشنيعة. على أثر ذلك، فقد الشاب صحته ورشده! فغدا مخبولاً هائماً على وجهه في الأزقة بعد أن اشتد هزاله وأصبح مجرد النظر إليه أمراً مرعباً. صار منظره كهيكل عظمي مغطى بغشاء رقيق من الجلد الممتقع الداكن.

شاب آخر في إحدى القرى كان على علاقة غرام بفتاة وعدها بالزواج فانتظرته. لكنه أخل بالوعد ونكث بعهده ليتزوج من امرأة ثانية. بعد زواجه، أرادت الحبيبة المنتظِرة أن تثأر لنفسها. قصدت مُنَجِّماً قبض الثمن وأعانها على سوء العمل. كتب كلاماً سحري المفعول على تفاحة أطعمتها الفتاة للعريس بالحيلة. ففعل السحر فعله لتُصاب العروس بالعمى بعد وضعها لطفلها الأول! هذا ما حكته امرأة عجوز هي ابنة خالة تلك العروس العاثِرة الحظ، فلقد طلقها زوجها عندما عجز عن إيجاد وصفة تشفيها. فهو لم يستطع التأقلُم مع عاهتها تلك. لكن البصر عاد إلى ناظريها بعد الطلاق مباشرة، كما تقول الحكاية، فتزوجت من رجل آخر أنجبت عنده العديد من الأطفال.
مُنَجِّم يروي بعضاً من تجاربه في محاربة السِّحر الأسود فيسرد قائلاً:
" بعض الأعمال الرديئة تسهل محاربتها. لكن بعضها الآخر لا يقدر أحد مهما حاول واستعان ولجأ واستعاذ، على إبطال مفعولها. خاصة متى كان السِّحر "بائتاً" وبرج المسحور خفيفاً. فالبرج الخفيف يأخذ عليه العمل الرديء بسهولة مطلقة أما البرج القوي، فلا يمكن للسِّحر أن يؤثر عليه، برج الجدي خير مِثال على ذلك. فهو جبار عنيد لا يتأثر بسحْر، لكنه سريع العطب إزاء نظرة واحدة من العين الحاسدة! فهي كفيلة بتنغيص عَيشه متى أصابته. لذا، وجب على مواليد هذا البرج الحرص على التمنطق بحجاب خاص يقيه شرّها. الحساب الدقيق وحده قادر وكفيل على اكتشاف كل أمر عسير. مرة جاءني أحد الأصدقاء بابنته الكسيحة التي أصابها المرض فأقعدها بشكل مفاجئ وصاعق. شكك والدها ان في الأمر سراً، فحملها إليَّ على التّو. تلك الصّبيّة كانت جميلة موفورة الصحة على عتبة الاقتران بشاب من الأغنياء. عندما وقع نظري عليها، عرفت علتها لأبدأ مهمتي الصعبة. وقد أسعفني الوقت كثيراً، فالساعة كانت حينها سعيدة صالحة لعمل الخير، ومنزلة القمر عالية مؤاتية. اكتشفت بأن امرأة سمينة "زوطاء" العينين أذابت كلاماً رديئاً في كوب من شراب التوت سقته للبنية. فشُلَّت قدماها ولم تعد تقوى على السَّير. عالجت الأمر بأن أذبت كلاماً صالحاً في كوب من عصارة الأعشاب. شربته الفتاة ليبطل مفعول سحر ما كانت قد ابتلعت سابقا. ولم تترك منزلي إلاّ ماشية على قدميها".
أما أحدهم فيروي باقتناع تام واستغراب شديد حكاية تلك الجميلة الشقراء التي التقاها يوماً في بيت أحد أصدقائه المُنَجِّمين. تلك الفتاة كانت "مَلْبوسة" من قبل عفريت سكن جسدها الجميل بعد وقوعه في غرامها! أراد المُنَجِّم استخراجه وطرده، فأنام الفتاة مغناطيسياً. ثم استدعى نفراً من الجن العلويين كي يقوموا بحراسته.
وابتدأ كلامه مع عفريت الجسد. الراوي يؤكد ويقسم على أنه سمع صوت العفريت يتحدث مع صديقه بينما الفتاة نائمة لا تلوي على شيء! والمُنازلة الكلامية بينهما كانت شديدة حامية. بكى خلالها العفريت بكاء مراً لأنه كره مفارقة فتاته! فحاول شراء ضمير المُنَجِّم الساحر واعداً إياه بالثروة. عندها أرشده إلى مكان دُفِن في باطنه كنز مرصود. لكن الساحر تعب في الحفر والتنقيب ولم يجد شيئاً. فغضب أشد الغضب، وحاسب ذلك العفريت حساباً عسيراً. إذ أمر أحد معاونيه العلويين الجبابرة بحبسه في قمقم مختوم، لعدة آلاف من السنوات القادمة!!!
في القرية الجبلية إذاً، تراث قديم وغني بقصص السِّحر والجن وملوكهم يرويها العجائز بشغف واستمتاع. لعل حكاية ذلك الطحان الذي تغلب بفضل ذكائه على عدد لا يستهان به من القوم القادرين، هي الأغرب والأكثر انتشاراً. اختلف الرواة في سرد التفاصيل لكنهم أجمعوا على إبداء شديد إعجابهم بالرجل الحاذق الفطن. كان لذلك الطحان ابنة وحيدة يحبها كثيراً سهر على تربيتها بعد أن ماتت أمها منذ سنوات. لتتركها طفلة تحبو بين يدي والدها. فأحْسَن الرجل تربية ابنته التي ترعرعت وشبّت. وأصبحت فاتنة الجمال وكأنها بدر في ليلة تمامه... حملت جرَّتها ذات عشيّة لتملأها من نبعة ليست بعيدة. من سوء طالعها، جُنّ بها قوم من الجن كانوا يعيشون في ذلك المكان. أبصروها ولم تبصرهم... فسارت قلوبهم لاحقة بها وهي في طريق عودتها بخطى ثابتة إلى طاحون أبيها. وقع الجن كلهم في الغرام ولم يسمّي عليهم أحد! تشاوروا فيما بينهم ليتم الرأي على أن يطلبوا الفتاة من والدها. فيقتسموها فيما بينهم بعد أن يلبوا له ثلاثاً من الطلبات! وهكذا، ظهروا للرجل بينما كان يعمل عارضين عليه الصفقة!

احتار ذلك المسكين وتلبك عقله، فما تراه يطلب إليهم فيعجزوا عن تنفيذه؟! خاصة وهو يدري بما لديهم من قدرة وحيلة. لكنه لم يستسلم بل أمعن في التفكير لأنه كره التفريط بحسنائه الجميلة.
خاصة وقد كان يحلم برؤيتها عروساً منذ ساعة ولادتها. أولى طلباته كانت أن يملأ له الجني سلة من ماء البحر على أن لا ترشح منها نقطة واحدة. ولشد ما كانت دهشته عظيمة، عندما لُبِّيَ طلبه ذاك في غمضة عين!
جاءه ذلك المخلوق العجيب بسلّة من قصب ممتلئة بماء البحر. وبها سمكة تسبح راقصة مهللة، بكل ثقة واطمئنان. أُسْقِط في يده وعقدت الدهشة لسانه. لكنه لم ينم ولم يهجع حتى اهتدى إلى ثاني طلباته. آملاً هذه المرة بالخير. فقد كان الطقس شتاء بارداً ، والثلوج تغطي المكان بكثافة. وكان يمتلك قطعة من الأرض الوعرة البائرة، لم يتمكن من استصلاحها وزرعها لصعوبة الوصول إليها. طلب من الجني بأن يسوي تلك الأرض ويزرعها عنباً وتيناً، ثم يقطف المواسم ويأتيه بالثمار الطازجة الشهية في مهلة أقصاها نهاراً وليلة. طار الجني مختفياً ليعود في صباح اليوم التالي إلى الطحان حاملاً إليه ما طلب! فأكل العنب والتين مع ابنته في شهر شباط! كما كسب كرماً جديداً لم يكن يحلم بامتلاكه...
صفن الرجل أسبوعاً كاملاً يتأمل. أمضى تلك الفترة جالساً على "بَلاس" قديم مجدول من شَعْر الماعز الأسود اللون، فاجأه الجن مجتمعون قبل أن يهتدي إلى طلب جديد. أذهله منظرهم ليهب واقفاً ويقول على غير دراية منه:" خذوا هذا "البَلاس" وبيِّضوه!" أخذ الجماعة "البَلاس" محاولين تبييضه. ولما فشلوا في تلك المهمة المستحيلة لم يعودوا إلى مضايقة الطحان مرة ثانية. فارتاح منهم ومن شرورهم لأنهم وبكل بساطة، لم يتمكنوا من صبغ شَعْر الماعز باللون الأبيض! فاحتفظ الرجل بابنته الحبيبة حالماً بيوم عرسها. لتتزوج بمن يستحقها من الإنس لا من الجن!
رواية أخرى تحكي بأن أحدهم برع في استخدام قبيلة برمتها من قبائل الجن لمصلحته الشخصية. وأمرهم ببناء منزل له كي يقطنه. قام ذلك المنزل بين ليلة وضحاها! بعضهم يؤكِّد بأنه رأى بأم عينه حجارة تُشْقَع فوق بعضها بسرعة فائقة، وبدون وجود عمال أو بنائين! لكن بعضهم الآخر يؤكد بأن الرواية كلها أوهام متوارثة. أما البيت الخَرِب الموجود في القرية أطلالاً تنادي، فهو مهجور لا يسكنه أحد. أهله قد هاجروا منذ زمن بعيد إلى ما وراء البحار طلباً للارتزاق. أطفال الحارة، لا يتجرءون على الاقتراب من المكان. لأنهم يخشونه فهو "مسكون" كما أخبرهم الكبار...!
الأمكنة "المسكونة" أو "المرصودة" في القرى كثيرة. يدلك عليها القرويون عن بعد. لكن بعض الشجعان يقتحمونها طمعاً بالكنوز والنفائس المطمورة. والقصة غالباً ما يبدأها مُنَجِّم يكتشف المكان المحروس من قِبَل ملوك جن ومردة وعفاريت. ذلك بعد أن يضرب "المَنْدَل" تلو "المَنْدَل" ويُجري اتصالات علوية أو سفلية لا يفقه الإنسان العادي لها سِرّاً. فيتمكن من معرفة كل شاردة وواردة عن الكنز المرصود. عندها، يجمع حوله أكبر عدد ممكن من الشباب الحالمين بالثروة والمجد ليبدأ العمل وإياهم. فيتدبرون له المال اللازم لإتمام "الوظيفة". ووظيفة المُنَجِّم تكون بطرد الأشرار واستجلاب الأخيار من الجن. ذلك يتطلب إحراق كميات مهولة من البخور الغالي الثمن على أشكاله وأنواعه. فالبخور مفعوله لا يقاوم في نجاح تلك العملية التي تستمر طيلة فترة البحث والتنقيب.
بعض الرجال اشتهروا وذاع صيتهم في السعي الدائم والدؤوب وراء استخراج كل ما هو نفيس مرصود ومدفون. فأنفقوا ثروات طائلة في هذا السبيل. العم عباس، رحمه الله، كان من أكثرهم تصميماً. فصرف عمره المديد في التفتيش والنبش وقراءة الطلاسم السحرية القديمة. أمله لم يتضاءل يوماً فما بخل بماله. لكنه توفي قبل أن تطال يديه ما هو ذو قيمة تُذْكَر. أحياناً، كان يقع على أشياء أثرية دُفِنَت مع ميت ما في عهد ما. فيبيعها ليُنفِق ثمنها على عمله من جديد... آمِلاً في كل مرة باكتشاف ما هو أثمن. لكن اكتشافاته كلها لم تكن قيمتها لتوازي تكاليفه وجهوده وعناءه. عاش الرجل طِوال حياته في فقر مُدقِع. واشتغل في عدة مجالات كي يؤمن سبل العيش لعائلته من جهة. والمصاريف الباهظة في سبيل البحث عن كنزه "الحلم" من جهة ثانية.

أحد المُنَجِّمين يروي حكاية طريفة في هذا المجال فيقول:
" ذات صباح ربيعي مشرِق زارني أحد زملائي الفلكيين. وهو عالِم ماهر. والعلماء المَهَرَة يعرف بعضهم بعضاً. فهم يتشاورون دائماً ويتبادلون الآراء لتطوير وتعميق أساليبهم في العمل. أسرّ الرجل إليَّ باكتشافه لمغارة رُصِدَ في داخلها كنز عظيم الشأن. لكن استخراجه يتطلب جهوداً جبارة وخبرة عميقة. فإذا تعاونت وإياه نستطيع أن نحصل على ما يُغنينا غناء فاحشاً فنورِث الأموال الطائلة إلى أولاد أولادنا... تباصرت وصديقي طويلاً في الإعداد لخطة عملنا. واستحضرنا كل ما هو مطلوب من أنواع بخور وعِدَّة وعِتاد. كما أتينا بطلاسم وتعاويذ وما إلى ذلك. ثم قصدنا المكان وضربنا مندلاً وقسمنا العمل كي لا نقترِف أي خطأ من الأخطاء. فالثروة طائلة ولا تُقَدَّر بثمن. لكن الحظ العاثِر لم يرحمنا! فبينما كنا في خِضَمّ الشغل عصرية ذلك اليوم المشؤوم، إذ بالمَرَدة الحراس يضربون ضربتهم القاضية! فالظاهر انهم قد أحسوا باقترابنا من الهدف المنشود. لم ندري ولم نُحس إلا بالآم مبرحة في كافة أنحاء أجسادنا، ذلك قبل أن نقع مغشياً علينا! صحوت من غيبوبتي تلك لأجد نفسي في حال يرثى لها. تطلعت حولي فلم أجد لزميلي من أثر، تجالدت ومشيت جاراً أذيال الخيبة مُستعيذاً بالله. بقي الألم المبرح يلازمني لفترة طويلة ولم أعد أقوى على الاحتمال. طبعاً، لم أقصد طبيباً للعلاج. بل قصدت معلمي في علم الفلك وقد كان مقيماً في الشام. عالج الرجل حالتي وخفف عني. لكن إلى تاريخ هذا اليوم، لا زلت أعاني من تنميل دائم وخفيف في أطراف أصابعي...
لم أعد أبداً إلى المغامرة والسعي في سبيل الكنوز المرصودة. فاللعبة خطيرة كل الخطر، والنجاح أمر ميؤوس منه. فالصُّلاح من الجن لا يمكن أن يساعدوا بشراً على استخراج المال. ذلك لأن الصلاح والمال لا يلتقيان. أما الأشرار منهم، فإنهم حتماً لن يعينوا أحداً لأن مهمتهم الدائمة والدءوبة والأبدية هي تعذيب الناس وليس إسعادهم. لذا، فمن الأجدى، والأنفع أن نصرف انتباهنا في سبيل آخر قد يعود علينا بالنفع!".
أحدهم قام بهدم منزله القديم الذي توارثه أباً عن جد، بعد أن تهيأ له بأن كنزاً كبيراً قد دُفِن تحته في أحد الأزمنة الغابرة. فأنفق أموالاً طائلة وباع معظم أرزاقه وأملاكه من أجل الوصول إليه. لكن المنية وافته بعد عمر مديد ولم يكن بعد قد بلغ مبتغاه. أبناؤه لم يرثوا منه إلا قطعة أرض واحدة، حفرياتها المهولة قد توحي للناظر بأن حرباً ضروساً قد دارت رحاها بين جيشين جرارين على مساحتها المتواضعة!
أما العم "أبو دعيبس" فيستفزه الموضوع ليشعل لفافة تبغ ينفث دخانها بعصبية ظاهرة، علها تفرج كربته. ثم يتكلم مشيراً بكلتا يديه المرتعشتين. فالتجربة كانت قاسية ومرة: " لعن الله تلك المرأة في كل حين!" يقول الرجل ويكمل:" عرفتها عن طريق الصدفة. هي التي أرشدتني إليه. ذلك النصاب المنافق! أخذت تقص على مسامعي حكايات تؤكد عظيم شأنه وطول باعه في علم الفلك. أقمت معه علاقة وطيدة بعد أن اقتنعت بقدرته وخبرته وجبروته. بكل نية صافية كنت أُكرِم وفادته في كل مرة يزورني فيها. لسانه كان طائعاً في الحديث عن مهاراته وحذاقته في كشف المُخَبَّأ، سيطر ذلك الرجل على عقلي وحواسي وآمنت به كل الأيمان. حدثت عنه أقاربي وأصدقائي وأحبابي كلّهم. وفي يوم أغبر، زارني ليزف إليَّ بشراه! بابتسامة عريضة أخبرني عن وجود كنز من الكنوز في أحد الأماكن الوعرة في لِحف الجبل المحاذي للقرية. أشرقت عيناي بسعادة ودعوت بعضاً من أصدقائي فتشاركت وإياهم بعد أن تعاهدنا على الإخلاص والوفاء. تعاوننا جميعاً على دفع التكاليف الباهظة. كنت انفِق وانفِق بسخاء وطيب خاطر. حتى مرّ وقت طويل أثقل كاهلي. عندما اشتلق المُنَجِّم السيئ الذكر بأنني أمر بفترة عسر وضيق، ألب أصدقائي عليَّ وأخذ يعمل وإياهم في الخفاء. عرفت بالموضوع صدفة، عندما كنت في طريقي إلى بيروت ذات يوم. وإذ بي أرى الرَّبْع كلهم برفقة المُنَجِّم قاصدين مكان الكنز. وقد كانوا في العاصمة يتحوجون البخور وغيره. لكن، "قِفاءة" (خفية) عني هذه المرة. ثارت ثائرتي وكيَّلت لهم الشتائم المُقْذِعة. تحدَّيت المُنَجِّم وتحديت ملوكه وعفاريته وشياطينه كلهم! اجتمعت الناس من حولنا فلم نتعارك بالأيدي. لكنني أضمرت في نفسي الشر وعزمت على الانتقام. لم يمر وقت طويل على

تلك الحادثة حتى توقفت أعمال التنقيب وفشل المشروع برمته. فشركائي كانوا قد فلسوا بدورهم. فاختفى المُنَجِّم وكأنه حبة ملح ذابت في كوب ماء. سلبنا النعمة، ثم باع منزله في الساحل ورحل. لم يعد أحد يدري له أي عنوان. لعنة الله كيف استطاع الضحك علينا واللعب بنا على هواه!".
"ممارسة السحر والتنجيم لعبة خطيرة من الممكن أن تُلْحِق الأذى البالغ بمن يحاول العبث دون الدراية الكافية". هذا ما تسره لنا خزانة الذكريات في ضمائر الأجداد والجدات. فأحدهم وقد كان شديداً عديداً، وقع صدفة على كتاب قديم احتوى آيات وطلاسم تجذب الجن والعفاريت. ففرح فرحاً جماً وأراد التسلية والاختبار. وقد كان الوقت في فصل الشتاء المثلج البارد. انتظر بفارغ صبره في إحدى الليالي المظلمة حتى نام كل من في البيت. ثم أضرم نار موقده وأنار قنديله وباشر المهمة. أخذ يتمتم ويبسمل ويحرق البخور ويتثاءب حتى ظهرت له العفاريت صاغرة. تكمل الرواية فتقول إنه أجفل من المنظر المروع الذي أوقف شعر رأسه. فلم يعد يقوى على إصدار أوامره لهم بعد أن عقد الخوف لسانه. اغتاظت العفاريت منه لأنه استدعاها ولم يأمرها بشيء. فأخذت ترقص حوله مطبلة مزمرة. ازداد هلع قلبه ولم يعد واعياً لما عساه قد يفعل ليصرفهم عنه. ولما تفاقم الرعب في قلبه وضع عباءته على كتفيه مولياً الأدبار... وعفاريته من خلفه ومن أمامه... بعد مدة من الزمن وجِدَت جثته الهامدة ملقاة في أحد الأمكنة... وانتشرت حكايته والعفاريت بين أبناء القرية. ذلك قبل أن تنتقل إلى آذان أهالي القرى المجاورة...

في مجاهل السياسة القرويّة

ومن موضوع السِّحر والسَّحَرة نتطرَّق إلى وجه آخر من وجوه الحياة العامة في القرية الجبلية. فالسياسة القروية تراث مارس الأهلون فصوله بحدود نطاق مجتمعهم الضيق. وقد انقسمت القرية عامة إلى فئتين: زعيم الحارة الفَوْقا له أنصاره، وزعيم الحارة التَّحْتا له أنصاره. والزعيم عادة يرث الأرزاق واللقب والأنصار عن والده الزعيم. فيصبح بحكم الطبيعة راعياً لرعيته التي تتحلق حوله بالمطلق لتدعمه وتؤيده وتفتديه. في هذا حِداء قديم يقول:

زعيمنا الله معك
عالموت نحنا منتبعك
زعيمنا الله يحميك
بدمنا نحنا منفديك

والنَّدْب للميت عادة دارجة، ففي حال وفاة الزعيم، تكون المناسبة عظيمة والخطب جلل. يجتمع خلالها الأنصار والمؤيدون راقصون محوربون بسيوفهم وهي عادة كانت دارجة في القرية. والندب غناء حزين يغالي في وصف المصاب عاتِباً على الموت تارة، خاضِعاً له تارة أخرى. وفي ندب الزعيم شِعْر كثير، نورِد ما تيسَّر لنا منه. فنعطي صورة جلية توضح شعور القرويين إزاء واحد من الزعماء، خطفه الموت المفاجئ لتحل الفجيعة بالقوم، خاصة وإنه لم يكن لذلك الرجل ولد يخلفه في تولِّي الزعامة. مما جعل اليأس يعشِّش في النفوس المكسورة الحزينة. "
فسُلَيْمى، وهو الإسم القروي الأنثوي للموت، قد اختطفت "ملك الغاب" الليث الغضنفر الذي يهابه الكل من عرينه الحصين. فنجحت حيث فشل غيرها بإلحاق الهزيمة بقوم أشداء. ونكست أعلامهم كما أغمدت سيوفهم قسراً. فهم لم يعودوا بحاجة إلى استعمال تلك السيوف بعد رحيل الزعيم!
فشمتت بهم الأعادي بعد أن فقدوا الرأس والسند. لم يبق لديهم سوى الغناء ندباً حزيناً يشرح ما فعله بهم القدر:

إقْلِموا خَيْل الجِيادي
وانْزَعوا عنها العِدادي
نكِّسوا سُمْر العوالي
واغمِدوا بيض الهِنادي
واصرخوا بصوت عالي
حَيْف يا ليث البوادي

حَيْف يا ليث المَهَابي
كِنت وَسْط الغاب رابي
عالأعاجِم والعِرابي
كنت تتولَّى السِّيادي
كنت محمود السَّجايا
كِنْت بذَّال العَطايا
كِنْت قَيْدوم السَّرايا
كِنْت حاكِم عالعِبادي
كِنْت كِلّ الفضل مالِك
والمزايا والمسالِك
هزِّت الأربع ممالِك
عندما نادى المنادي
عندما سُلَيْمى دِهِتْنا
بسهمها الماضي رِمِتْنا
والليالي تراكمتنا
شمَّتِتْ فينا الأعادي
نالت سُلِيْمى أملها
هكذا بالناس عملها
نيَّخِت بالدّار جملها
غَيَّبِت ركن السعادة!

ذلك الزعيم الذي ارتحم قومه عليه، تنصِّبه الأغنية الحزينة إذاً، حاكِماً مطلقاً طالت حدود سلطته لتشمل الأعراب والأعاجم! استوطن سراياه فتولى شؤون العباد قاطبة. ملك المجد مقروناً بالسَّجايا الحميدة والجود والكرم... نادى المنادي ناعياً إياه لتهتز أركان ممالك الدنيا الأربعة تحت وطأة الخبر الصاعق. غمامة الحزن هطلت بغزارة على القوم، فقَلَموا الخيل ونزعوا عنها عدَّتها. نكسوا رؤوسهم أسى ولوعة بعد أن أقفلت دار الزعامة أبوابها. غابت السعادة وحل الوجوم. فالسَّبع قد رحل من الغاب دون رجوع، ودون وريث يلبس العباءة من بعده...

ذِكريات العجائز عن سياسة القرية بمجملها لا تحمل إلاّ أنباء عراك وخصام وعداوة بين الأقطاب وأتباعهم. أسباب الخلاف يشرحها لنا شِعْر يقول:

يا ضيعتي يللي رْبيتْ فيكي سنين
ليش اهلك دَوم مِخْتِلفين؟!
يوم عالناطور والمختار
ويوم عاوكيل الوقف هالمسكين!

عجوز يتفاقم حماسها وهي تروي تفاصيل المعركة الانتخابية المشهودة التي وصل فيها "الدَّم للرِّكَبْ". تقاتل أهل القرية في أحد الأعوام على اختيار مختارهم. وجرت بينهم واقعة "تاريخية" على حد تعبير السيدة التي حدَّثت بالقول:

" المخترة توارث ختمها بيت أبو خليل أباً عن جد! فكان الابن يحتفظ بالختم بعد عين أبيه بشكل طبيعي متناغِم. هكذا جرت العادة فأصبحت عرفاً سائداً. وكان المختار زعيم الحارة الفَوْقا التي تحلَّق أهلها حوله متراصين ككرة من حديد. في إحدى السنوات، تنطَّح أهل الحارة التَّحْتا يريدون "تقشِيطنا" الختم! فأعلن زعيمهم ترشيحه للمنصب بكل وقاحة! وأخذ يناوِر ويعقد الاجتماعات متآمِراً محاوِلاً استقطاب السُّذَج وبسطاء القلوب من أهل حارتنا. وقد لحقه عدد لا يُسْتَهان به من هؤلاء الذين أعمى "الهَبَل" قلوبهم. فأبو خليل كان الأحَق بولائهم! هو زعيمهم وراعيهم، الذي لم يتعدى على الكار، فوالده وجده كانا في الزعامة ركنان عظيمان من قبله. هكذا إذاً، وبكل بساطة

طمع كبير الحارة التَّحْتا في انتزاع السلطة من أيدينا، آمِلاً في إعلان فوزه عند فَرْز الأصوات يوم الانتخاب.
أثارت تلك الحركة الدنيئة حفيظة كل كبير وصغير منا! نساء ورجالاً، شيباً وشباناً، نَقَمْنا على أهل الحارة التَّحْتا فقطعنا محكاهم. وامتنعنا عن زيارتهم. حلَّت نظرات الحِقد والكراهية محل السلام والكلام وسؤال الخاطر...
ميدان كبير كان يفصل بين الحارتين. في أحد أركانه كانت تقوم سرايا كبيرة لها دَرَج عريض. فيها تمركز الشاويش وعسكره فأصبحت "كَرَكون". وذلك الشاويش، والحق يُقال، كان رجلاً حر الضمير صَلْب المواقِف. صداقته لأبي خليل كانت حميمة. تعاطف معه وسانده في تلك المِحْنة مع إنه كان غريباً عن القرية! قبل الاقتراع بأيام قليلة، نشطت حركة الأخصام بشكل ملحوظ، قرر كبيرنا ومشيرنا عندها، قطع دابر الفتنة من أساسه. جمع الرجال في داره وأعطاهم أوامره. حدد نهاراً للمواجهة وأعد له خطة محكمة. وترك لابنه البكر أمر قيادة قطيع المناصرين والأزلام.
عشية اليوم المشهود، اجتهدنا رجالاً ونساء في إعداد العدة. هيأنا الفؤوس والبلطات. جمعنا غماراً من أعواد الحطب وأرجل الكراسي المُخَلَّعَة لتكون عصيّاً في أيدي الرجال. كومناها في ركن من أركان السرايا إلى جانب تلة من الحجارة كان الصّبية قد جمعوها هناك في وقت سابق.
وعندما حلّت الساعة، فرطنا بهم وكسرنا شوكتهم. والشّر ابتدأ عندما تحرَّش بعض من شبابنا ببعض من شبابهم. وأعادوهم إلى حارتهم والدم يغطي وجوههم وثيابهم. فهجم أقاربهم على عجل لمواجهتنا. لكننا كنا جميعاً على أهبة الاستعداد ننتظر قدومهم. تمركزت النسوة على درج السرايا لرشق الحجارة ولمناولة العصي إلى أيدي الشجعان المحاربين في الميدان. اشتبك القوم وكانت معمعة عظيمة الشأن. علا الغبار ليحجب المتعاركين بغمامة كثيفة. هيهات كانت الحجارة تنهمر على الرؤوس "كَرَدَّةٍ" من البَرَدْ. وعلت أصوات النساء بالزغردة والحداء لإثارة الحماس في سبيل كسب المعركة الفاصلة.
لم يمر وقت طويل حتى تمكننا من الأعداء الغاشمين. قلائل منهم لم يصابوا بالأذى... شُجَّت الرؤوس، بُقِرَت البطون، وكُسِرَت الأيدي والأرجل والضلوع، قيامة وكانت قائمة! ذلك كله "وعسكر الكركون" مجتمعون وشاويشهم على سطح السرايا يتفرَّجون، حين تعبت عيونهم من الغبار المتصاعد، أطلقوا رشقاتهم في الفضاء للفصل بين الأهالي المتخاصمين. ثم نزلوا إلى الميدان فأمسكوا ببعض الشبان وأدخلوهم إلى السرايا مكبلين بالأصفاد. ربحت حارتنا تلك الجولة واحتفظنا بالختم.
يوم الانتخاب لم يتمكن المصابون الكثر من التوجه إلى قلم الاقتراع للتصويت لزعيم الحارة التَّحْتا. ففاز أبو خليل فوزاً ساحقاً. لكن الفرحة لم تصل إلى القلب! فبعد إعلان النتيجة بقليل، نادى المنادي ينعي خليلاً الذي كان قد أُصيب في خاصرته أثناء العراك... رحمات الله عليه، خليل ذاك، كان وعن جدارة واستحقاق "شيخاً للشباب". قدرته القتالية كانت خارقة... مأتمه المهيب حضره جمع غفير من الناس. الجموع الحزينة الغاضِبة عبرت عن شعورها بالحَورَبة والرقص بالسيف والتُّرْس. الندب الحزين استذرف الدموع غزيرة من الأعين. أذكر ما جاء على لسان إحدى النَّدابات التي شبهت الفقيد "بسبع الغاب":

يا خْبار الشوم من بعد الهنا
راح سبع الغاب عِز المُقْتنى
راح سبع الغاب وأخلى منزلو
كان بالهيجات ضرَّاب القِنى
كان بالهيجات محسبلوا حساب
كان بالأوطان شيخ عالشباب
كان بالبلدان من اهل النسب...

ندابة أخرى أجابتها بالقول:

يا دار يا دار الكرامة والجهاد

خَطْبِك فجيعة حلّت بكل البلاد
يا حَيْف سبع الكان رابِض بالعرين
يترك بلادو لابسة ثوب الحداد...
إيه! قاتل الله السياسة! فلقد استمرت العداوة بين أهالي الحارتين لعدد كبير من السنوات".
الرواية التالية تحكي عن معركة انتخابية أخرى جرت فصولها عندما حل موعد انتخاب المجلس البلدي في القرية. تضحك العجوز لاعنة الشر وساعته قبل أن تستطرد في حديثها:
" حل الخصام فانقسم الناس ودبت العداوة في النفوس. حتى إن الأخ امتنع عن مخاطبة أخيه! جارنا الأستاذ وقد كان متعلماً وثرياً، ترأس لائحة انتخابية وجمع حثالة القوم. أغدق عليهم أمواله وأسبغ النِّعَم فتكتلوا حوله. وأخذوا يفتعلون المشاكل ويتعدون على الأهلين، حتى ضج الجميع منهم. وأصبحت "قباحاتهم" حديثاً للناس في القرية. التقيت جارنا الأستاذ في يوم فسألته:" ومن تراهم يطلعون هؤلاء الذين استقطبتهم إلى جانبك؟!" فأجابني مقهقهاً:" وهل تراني أبتغي متعلماً يتفلسف عليَّ؟! أنا لا أريد سوى من أستطيع امتطاء صهوته! أخبري زوجك بأنني المنتصر. جهوده سوف تذهب أدراج الرياح...".
زوجي، رحمه الله، كان أكثر المتحمسين ضد الأستاذ ذاك. وقد تحلق حوله الطيبون والعقلاء من الأهالي. كانوا يعقدون اجتماعاتهم المتتالية في بيت من بيوت الحارة. أطلقنا عليه اسم "البرلمان" تندراً! إلى ذلك "البرلمان" كانت النسوة تنقل كل ما تستطيع إعداده من أكل وشرب وحلوى.
يشهد الله، لم يأتي يوم الانتخابات وفي معجن أحد منا رغيف واحد!
الأسبوع الأخير كان حاسماً. بلغت الجهود ذروتها فوصل الأهالي ليلهم بنهارهم. بذل كل ما بوسعه بقصد ترجيح الكفة باتجاه ميوله وأهوائه. وفي الليلة التي سبقت الانتخاب بثمان وأربعون ساعة كانت السهرة في "البرلمان" عامرة. جرى خلالها احتساب الأصوات الموالية لنا. وجد زوجي بأنه تلزمنا ثلاثة أصوات إضافية كي نؤمن الفوز الأكيد. قلَّب الأمر في عقله فوجد حلاً مناسباً. كان هناك رجلان من أبناء القرية يعملون في المشاحر في أحد أحراج منطقة عكار. وثالث يشتغل "بغَّالاً" في منطقة عاليه. قرر أن يرحل في طلبهم، فأسرَّ اليَّ بالموضوع وسار على بركة الله بعد أن حرَّصني كل الحرص بأن أُبْقي أمر غيابه في طي الكتمان. فلا يتسرَّب الخبر إلى مسامع "الأستاذ" فيسبقه إليهم.
ماشياً على قدميه ذهب المرحوم إلى الساحل. من هناك استقل سيارة أجرة نقلته إلى عكار. أرشده أحدهم إلى مكان عمل الرجلين بالقول:" وجهك وهذا الحرش! في وسطه يقع وادي الجواميس حيث تنتشر المشاحر!" رائحة شواء الفحم التي كانت تنسِّم مع الهواء قادت خطاه فلم يخطئ.
وصل فنادى على الرجلين وطلب إليهما بأن يتركا المكان ويسيرا برفقته غير ملتفتين إلى الخلف. لكنهما لم يُذعِنا إلا بعد أن استأذن لهما من "الأفندي" صاحب العمل. برر له وجوب مغادرتهما المفاجئة بالقول:" حماتهما تنازع! والتركة كبيرة! إن لم يرحلا حالاً لن يفوزا بشيء من الإرث".
ثم طلب من الرجل إقراضهما بعض المال كي يُدبرا أمورهما به. وبعد أن أرسلهما إلى القرية، توجه هو إلى عاليه. اهتدى إلى البغَّال فجره أمامه جراً تاركين البغل مربوطاً بحمولته أمام أحد الخانات! وصلا صبيحة يوم الانتخاب فأدلى الرجل بصوته وقفل راجعاً بأقصى سرعته...
فزنا بفارق بسيط لتستمر الأفراح والابتهاج أياماً وليالٍ. اجتمع المناصرون في الساحة راقصون مهللون. بينما قبع الأخصام في بيوتهم ولم تُسْمَع لهم حركة. أطرف ما أذكر، إن رجلاً كان ابن عمه "اللزم" عضواً مرشحاً على لائحتنا، هدد امرأته بالهجر والطلاق إن هي تجرأت على الإدلاء بصوتها لأخيها الذي كان مرشحاً في اللائحة المعادية! هذا بعد أن كال لها سيلاً عارماً من الشتائم التي طالت أصلها وفصلها ونبشت عظام أجدادها من قبورهم... لولا سِتْر الله ونجاح لائحتنا بكامل أعضائها، لخرب ذلك المتهور بيته...".
اغرورق أحدهم في نوبة من الضحك والسعال حتى دمعت عيناه. ذلك قبل أن يستطرد في سَرْد ذكرياته حول تعيين الناطور في إحدى القرى المجاورة. " خمسة وزراء وعشرون نائباً تدخَّلوا في الأمر الذي استغرق بضعة أشهر من تلك السنة التاريخية!" يقول الرجل ثم يكمل:" كان

الطقس قاسياً جداً. المنطقة كلها لبست حلة كثيفة من الثلوج. فقطعت الطرقات بين القرى. لكن ما من شيء كان ليمنع أهالي تلك القرية عن الذهاب والإياب إلى بيروت لمراجعة المسؤولين والتوسُّط لديهم للتدخل في ذلك الشأن الخطير! ألا وهو تعيين الناطور الذي قسم القرية إلى فئتين متخاصمتين متناحرتين: رئيس البلدية ومحازبوه من جهة، والمختار ومؤيدوه من جهة أخرى...
مرة كان المختار في طريق عودته من العاصمة عندما هبت عاصفة ثلجية أعاقت وصوله إلى قريته. قرع بابنا ليحل ضيفاً مكرماً معززاً وقد كانت ابنته الصغيرة برفقته. تلك العادة أتبعها أهالي القرى حين كان يعترض سبيلهم أي طارئ. الطقس القارس، نكَّد على صحة المختار كثيراً. فهو كان يعاني من "الربو" أُصيب بأزمة صدرية فاعتنينا به وأكرمنا وفادته. وقد قصَّ علينا تفاصيل المعركة السياسية بينه وبين أخصامه. فضيق التنفس لم يمنعه من الكلام والحماسة في الحديث. النصر المبين أكده له "البيك" الذي زاره مراراً وتكراراً. كل زيارة إلى ذلك "البيك" كانت تكلف المختار "حمولة دابّة شابّة" من منتوجات القرية. فالرجل المرموق كان يحب العسل الصافي بشهده. والجبن البلدي الأخضر، ولبن الماعز، والبيض الطازج، والخبز المرقوق، ومربّى التين، والدِّبس، و...
بعد مضي يومين على حلول المختار ضيفاً علينا، زادت قساوة الطقس وأصبح الثلج المتراكم على الطريق أكثر من طول الذراع. تعشينا ونمنا في تلك الليلة لنصحو على صوت قرع على الباب بعد منتصف الليل بقليل. أدهشني ذلك! فمن عساه يقصدنا في مثل ذاك الطقس؟! وفي ساعة متأخرة كتلك؟! فتحت الباب الموصد لأرى ثلاثة أشخاص من الثلج. أتيت بمكنسة خشنة وكنَّست الثلج عنهم لأتبيَّن ملامحهم. دعوتهم للدخول ثم أضرمت نار الموقد وأيقظت زوجتي كي تُعِدّ للضيوف حساء ساخناً من الكِشك. فأسنانهم كانت تصطك من البرد. تدفأ الرجال، ثم تناولوا طعامهم فتحسنت حالهم. أصبحوا قادرين على النطق فصفق أحدهم كفاً بكف. ثم قال بأعلى صوته:" هيهات على الرجال! مختارنا يتمضيف في داركم ورئيس البلدية مرابط في العاصمة منذ البارحة! لقد أقسم لزواره قبل ذهابه بأنه لن يرجع إلى القرية إلاّ و"صك" تعيين الناطور في يده!".
أتم كلامه وهرع إلى غرف النوم يبحث عن المختار ليوقظه من نومه! أسرعت في أثره أحاول تهدئته لكن عبثاً حاولت. استفاق المختار مذعوراً مستطلعاً الأمر. بادره رجاله بالشرح الوافي بعد أن أجمعوا على ملامته بالقول " أنت نائم على راحتك، والعدو قابع في العاصمة يبث سمومه..." أُسْقِط في يد المسكين وأطرق قبل أن يُصدر أمره الحاسم للأزلام: "نرحل حالاً إلى بيروت".
حاولت استبقاءهم للصباح فلم أُفْلِح. طلب مني حراماً صوفياً دثَّر به جسد صغيرته النائمة. حملها واحد من الرجال على كتفه. وسار الموكب شاقاً الثلوج قاصداً الساحل. ولم يصلوا إلى دار "البيك" إلا في ظهيرة اليوم التالي. تعجَّب "البيك" من رؤية المختار في داره ثانية وبأقل من فترة أسبوع. خاصة وقد كان خاوي اليدين بدون هدية هذه المرة! لكنه تفهَّم الموضوع بعد نقاش قصير. فرفع سمَّاعة الهاتف وكلَّم سعادة المحافظ الذي أجابه بالاعتذار والخجل!
لقد خرج الموضوع من يده واضطر إلى النكوث بالوعد الذي كان قد قطعه على نفسه "للبيك"! ذلك بعد أن اتصل به عدد لا يستهان به من "البيكوات" وأجبروه على تعيين الناطور الذي يرغبه رئيس البلدية. لكن "البيك" لم يعذر المحافظ أبداً بل أسمعه الشتائم والإهانات قبل أن يقفل الخط في وجهه. ثم زف النبأ إلى ضيوفه بشفاه مرتجفة غاضبة. واعداً إياهم بالاقتصاص من ذاك الذي سوّلت له نفسه خدمة الغريم الغاشم. "الدنيا قُرْضَة ووفاء!" ولا بد من الثأر والانتقام من رئيس البلدية "وبيكواته" والمحافظ في يوم من الأيام...
هكذا عاد المختار وصحبه إلى قريتهم مكدَّرو الخاطر مكسورو النفوس. فعصا الناطور قد انتقلت من يد نصيرهم إلى يد أحد الأخصام. وفي هذا خطب جلل والعياذ بالله...".
الاقتتال في القرى متعدِّد الأسباب. فالسياسة ليست إلا جانباً من جوانب الخلافات بين الأهلين والأقارب. جوانب عديدة أخرى أفقدت القرويين هدوء الأعصاب. فطيرت منهم الصواب ولجئوا إلى العنف تحصيلاً لحق ضائع. وأبرز أسباب الشرور كان الخلاف على الدور في استعمال

المياه لري المزروعات. فالدور في "السقاية" كان يستمر ليلاً نهاراً. وضبت الدور بين الفلاحين كان يقوم به "القنواتي" أو ناطور الماء. لكن ما من رقيب وما من حسيب كان ليمنع القتال التراثي الدائم خاصة في سنوات "الشحائح".
"شر المياه قريب!" تؤكد العجوز قبل أن تسرد:
" واقعة مشهودة كانت تلك! جرت فصولها يوم كان "خزاعي" يروي مزروعاته في الوادي. انقطعت الماء عنه فجأة فجن جنونه! لأن دوره لا ينتهي إلا مع غياب الشمس. نظر ناحية الغرب للتأكد من وضع الشمس، فوجد انه لا يزال أمامها حوالي "نص ذراع" كي تغوص في البحر. تيقن بأن في الأمر تعدٍ صارخ على حقه فثارت ثائرته. نوى على الشر وقصد محقان الماء. بينما هو في طريقه شاهد جاره أبو أسد يدير المياه ناحية حقله. فعرف انه الغريم الطامع! صاح به: " لماذا قطعت المياه عني قبل أن ينتهي دوري أيها الآدمي؟!" رد عليه الرجل بكلام لم يعجبه. دار نقاش حاد تدخلت فيه شقيقة أبو أسد التي كانت تساعد أخاها. حاولت المرأة طرد خزاعي من المكان. لكنه ثبت مصراً على تحصيل حقه! فعاجلته بضربة من "مجرفتها" على رأسه ثم تركته يتخبط في دمه وأسرعت إلى القرية تنادي أقاربها. تحامل خزاعي على نفسه وتجالد ليسير قاصداً منزله. كان له تسعة أبناء فتيان اجتمعوا حوله وحملوا السلاح... سريعاً انتشر الخبر، وتهيأت القرية للقتال. بالعصي والفؤوس والمناجل سارت الجماعات باتجاه الوادي للمبارزة. أقارب أبو أسد وأقارب خزاعي. التحم القوم في عراك حاد دام نحو ساعة من الزمن لينتج عنه قتيل واحد وبضعة من الجرحى. كان القتيل أصغر أبناء خزاعي وقد توفي فور تلقيه طعنة في بطنه. وقع على الأرض "ولم يعطس"!
كبرت القصة، وحل رتل كامل العدة والعتاد من العساكر في الوادي. خيولهم أكلت الزرع وهم أكلوا الدجاج والخراف! أسبوع كامل أمضوه في القرية فنكبنا بوجودهم ولم نعد نستطيع الاحتمال. لم يوفروا أي من الفريقين المتخاصمين بل جاروا على الجميع سواسية. نزل وفد من الأهالي إلى أحد الزعماء المتنفذين في العاصمة. طلبوا إليه التدخل في الأمر وحل الموضوع بالتي هي أحسن. طلب "البيك" تسليم القاتل إلى العدالة بعد أن وعد وعداً قاطعاً بالتوسط له لتخفيف الحكم عنه.
القاتل الحقيقي كان قد فر إلى قرية مجاورة حيث اختبأ في إحدى المغاور. جمع غفير كان برفقته. فكل من شارك في العراك ولى الأدبار عند حضور جيش "الجندرمة". لم يقتنع الجاني بتسليم نفسه خاصة وإن أحداً لم يره وهو يقتل الفتى. فالمعمعة كانت شديدة والكل كان مشغولاً بالعراك. وبعد أخذ ورد ومشاورات، تم الرأي على تسليم شاب في السابعة عشرة من عمره إلى الحكومة. فقد كان دون سن الرشد ولا يطاله القانون كثيراً. لكن ذوي القتيل رفضوا ذلك بإصرار. عاد الفتى إلى القرية ليرحل خاله عوضاً عنه إلى السجن. ولما أبرم القاضي حكمه، أمضى الرجل أربع سنوات في سجنه وخرج بعدها حراً طليقاً، لكن القرية لم تسترح من ذيول ذلك الشر، إلا بعد أن أرسل أقارب أبو أسد مالاً وفيراً من المهجر. دفعه الرجل "دِيَّة" لخزاعي فسكت عن المطالبة بثأر ولده. ولكن العداوة بين البيتين لا تزال قائمة إلى يومنا هذا!".
المشاكل التي كانت تقع عند اختلاف الجيران على الحدود الفاصلة بين أراضيهم وأرزاقهم لا تُعَد ولا تُحْصى. فمعالِم الحدود كانت عبارة عن حجر أو شجرة أو صخرة أو مِرْبَط حمار أو ما يشابه. ومن السهل أن يقوم عليها الخلاف. لعل أطرف حكاية في ذلك هي التالية:" يحكى أن جيراناً اختلفوا على الحد الفاصل بين كرومهم عندما أثلجت الدنيا وغطت المعالم كلها. عباس جرف الثلوج من كرمه، فاتَّهمه جاره قاسم بأنه رمى الثلج المجروف ضمن حدود أرضه هو. ورأى في ذلك العمل ضرراً فادحاً لكرامته ولكرومه! استشاط غضباً وجمع أبناءه وأعاد وإياهم الثلوج كلها إلى ضمن حدود كرم عباس المعتدي. فوقع الخلاف و"عَبَكَ" القوم... لم تنجلِ الأمور إلا بعد أن تدخَّل أكثر من "بيك" و "أفندي" و"شيخ"! فالقتال كان قد أدى إلى أكثر من إصابة. ولم تهدأ النفوس تماماً إلا بعد أن ذابت الثلوج وبانت المعالم كلها بوضوح. فلزم كل حده!".

محتداً محتدماً، يبدأ العجوز قصته التالية لاعناً الطمع والطماعين! فالمشكلة قد حصلت بسبب اختلاف على استلام شؤون أراضٍ وأرزاق خلفتها عائلة رحلت إلى المهجر منذ عام 1914، ولم يرجع أحد من أفرادها إلى القرية:
" لحقت شقيقتي بزوجها إلى البرازيل بعد أن تركت اثنين من أبنائها في عهدتنا. إبان المجاعة التي حلَّت في البلاد، مات واحد من أولادها أما الآخر فلقد عاش بيننا مكرَّماً معزَّزاً حتى أرسل والده في طلبه فالتحق بعائلته. وكنت أملك توكيلاً رسمياً من صهري بإدارة شؤون بيته وممتلكاته كلها. للحق القول، لقد قمت برعاية أرزاقه تلك على أكمل وجه. كنت أزرع وأحصد وأستعمل البيت زريبة لقطيع كبير من الماشية. كرت السنوات متلاحقة لأفاجأ ذات يوم بشقيق صهري يبرز في وجهي توكيلاً آخر غير ذلك الذي كنت أحمله. أراد ذلك الوغد انتزاع اللقمة من فمي! وكان قد قام بزيارة شقيقه في المهجر حيث أسمعه معسول الكلام فأقنعه على التنكر لي ولخدماتي.
عاد ذلك السيئ الذكر إلى القرية وكأنه يحمل رأس عنترة العبسي في يمينه! حاول جاهداً أن يكف يدي عن التعاطي في أمور الأرض. وكنت قد زرعتها قمحاً وشعيراً وخضراً. أراد أن يستغل شقاي وأن يأكل تعبي. لزمت أرضي ليل نهار أذود عنها وأرعى شؤونها. ولما يئس من إقناعي بالطرق السلمية، أغار عليَّ بمعونة ثلاثة من أشقائه. لكن أخي وأبناء خالتي أسعفوني عليهم فهزمتهم شر هزيمة. أشبعتهم ضرباً وركلاً ويسَّرْت كل منهم إلى بيته مشوَّهاً معوَّهاً. وضعت حداً بذلك لجميع الأحلام الخبيثة التي كانت تدغدغ مخيلة الرجل الحاسد الطماع. احتفظت بالسيطرة على تلك الأرزاق فأطعمتني الشهد لسنوات... أما اليوم فهي بائرة بائسة يملؤها الشوك ويغطيها العشب اليابس، ولقد أصبحت على هذه الحال منذ أن أقعدني السن عن العمل!".
لعب الورق في سهرات الشتاء كانت تسلية ما بعدها تسلية للشبان في الحارة. في كل ليلة كان الاجتماع في بيت من البيوت. حيث يضاء قنديل كبير "نمرو أربعة". ويتربع الساهرون على الأرض المغطاة بجلود الخراف والبسط المجدولة من شعر الماعز. ثم يتناولون ما تيسر من الحلوى والزبيب والتين المجفف. ليبدأ اللعب والنقاش الحاد "والتِّزْريك". يربح من يربح ويخسر من يخسر، بالطبع. وقد جرت العادة بأن يلجأ الرابح ومؤيدوه من الساهرين إلى التشفي بالخصم والسخرية منه. ذلك عندما كان يأتي بعصاً يزينها للمناسبة السعيدة. ويمتطي صهوتها مخيلاً في أرجاء المكان ملوحاً بسيفه الوهمي منشداً بأعلى صوته:

تاتِتْعَلَّم لِعْب الورق
ياما بدَّك حتى ترفق
وتشرب كينا بعد العرق
يما شربة خروع رطلين!

خرجك بالحقلة ترعى شي دابة
يما شي بقرة كبيرة تكون حلاَّبة
ذنبتها زهرة وثوبا عنَّابي
جمعلا شعراتا منعمللك طبق!

لطالما تسبب كلام هذه الأغنية بالعراك والخصام والشرور. ذلك عندما كانت أعصاب المهزوم تنهار تحت وطأة السماع المتكرر. فيثور على الرابح بالشتائم والمبارزة والضرب بالعصا! أما في الأعياد العامة، فالساحة كانت مسرحاً حقيقياً للأهالي. حيث يجتمعون ويعقدون حلقات الزجل والدبكة والغناء. فتتمايل الخصور على أنغام الدربكة والمنجيرة والربابة. ويتبارى "القوالة" في قرض الشعر الشعبي. والمساجلات بين "القوالة" المتبارين والمتحمسين من الحضور كانت شائعة جداً. وما كان أي احتفال ليخلو من الانتهاء بالاشتباكات الدامية! فتتحول بذلك الساحة من مسرح رقص وفرح إلى مسرح تحدٍ وعراك! عجوز يذكر متحمساً التفاصيل

لإحدى المعارك الشعرية التي انتهت ببضعة جرحى! " تلك السنة في عيد شفيعة الضيعة توافد الناس من شتى القرى المجاورة، زرافات ووحداناً. جاءوا كي يشاركونا الاحتفال. "قوَّال" غريب بارز "قوالاً" محلياً. جلس الاثنان متقابلان. وقد تحلق أنصارهما ومشجعوهما كل فئة بجانب "قوالها". فانقسم الجمهور إلى فئتين. أهالي قريتنا فئة، وأهالي القرية المجاورة فئة أخرى. ولما كان "القوال" الغريب قد أُغرِم بحسان قريتنا اللواتي كن يتنقلن في الساحة كغزلان البر. فقد أطلق لصوته العنان متغزلاً بهن:

خيولكن هالشقر يحسن حالها
سبيتلي عقلي بحسنها وجمالها
لفك لي مهرة وآخذها معي
وإن لحقتوني جيبوا بدالها!

"قوال" قريتنا هب مجيباً إياه على الفور. بلا مساومة ولا مهاودة وأراه قدر نفسه حين قال:

كلها أصايل خيلنا لا تنسرق
كل مهرة وعارفة خيالها
وإن إجى العدو بدو يفكها
بتكون سفّتوا بجوز نعالها!

حاول الغريب الإجابة لكنه أخفق. كان يصفن ثم يقول:
"أوف، أوف،". ليعود ويصفن من جديد. لم يستغرق الوضع المضحك كثيراً. فقد قام أحد الشبان بكسر زجاجة حملها وهجم ضارباً بها "قوالنا" ليفج له رأسه. وعبك المحتفلون بالعيد بعضهم ببعض في اشتباك دامٍ. وكانت النتيجة غير سارة لكلا الفريقين. وقد بقيت ذيول تلك الحادثة تجر وبالاً لعدة أشهر. حيث كان الرجال من كلا القريتين يربطون الطرقات ليل نهار. ويعترضون أي "مكاري" يشتبه بأنه من سكان القرية المعادية... لكن بعد أن استفحل الشر وتفاقم، تدخل الأوادم فصالحونا وانتهى الأمر".

نبوءات آخر الأوقات

الحكاية الأخيرة جاءت على لسان عجوز غاضبة يائسة حانقة " فأخلاق الناس تغيرت"، كما تقول. لكنها تعود فتؤكد بأن نبوءات الأنبياء تتحقق. وهي عندما كانت طفلة تحبو كانت تستمع إلى كلام جدها، الرجل العاقل. فقد تناولت أحاديثه كل ما سوف يحل بالبشرية في "آخر الوقت". "يوم الدينونة ليس ببعيد". تقول لي: "فالعلامات الفارقة ظهرت جلية. فسقت الأمم وكفرت العباد!" أين هي القرية اليوم منها بالأمس؟! لكن المقدَّر مقدَّر والمكتوب مكتوب. وها هي دلائل نهاية الكون تظهر يوماً بعد يوم. طالما تلاها الأقدمون على مسامعي. وها أنا ذا أحيا كي أرى بأم العين كيف تحققت النبوءات التي كانت تقول:
" في آخر الوقت:

- تقل النخوة من رؤوس الرجال.
- ويقل الحياء من وجوه النساء.
- ينطق الحديد ويقرب البعيد.
- يتزيَّ الرجال بزي النساء.
- تتزيّ النساء بزي الرجال.
- يُحْكَم العباد بالغلاء والكواء وسوء الحال".

حتى الموت أصبح موضوعاً للسخرية، وفقد رهبته واحترامه! أصبحت الوفاة مناسبة تتجمع فيها النسوة للثرثرة والضحك... يوم توفيت جارتي "أم حبوس" رحمها الله لم أستطيع الاحتمال. فرفعت صوتي كي أؤنب النساء. الَّفَت إحدى العابِثات ندبة مضحكة، أخذت تغنيها للفقيدة. فأحدثت الهرج والمرج في صفوف المجتمعات حول النعش. قالت:

يا خالتي أم حبوس
لَهْ يا مْسَبَّلة
يا أم العيون مْذَبَّلة
بتحبي الفرفحين
يما القرص عنة متبلة؟!

وبدلاً من إيقافها عند حدها، ساهمت النسوة معها. تدخلت عندها وأسمعت الجميع ما يليق بشأنهن. هيهات! "قلة الدِّين" أصبحت قاعدة... مسكينة أم حبوس كانت تعيش في غرفة حقيرة ولا ترمي ثقلها على أحد. عمَّرت كثيراً قبل أن يختارها الله. كفر بها أهل بيتها قبل غيرهم... رحمات الله على أيام كان الصغير خلالها يحترم المسن ويجله... يوم كانوا يقولون "الما عِندو ختيار... يشتري ختيار!" يومها، كان "الختيار بركة في البيت"...

خاتِمة هذه الذكريات

القرية اليوم، تنتشر في أرجائها بيوت حديثة البنيان تتوفر فيها كل أسباب الراحة وأساليب الرفاهية... ملابس القرويين مستوردة في مجملها من أوروبا وأميركا وغيرها... السيارات الآتية من أقاصي الدنيا تتسابق على الطرقات المسفلتة... الأسواق والمتاجر والحوانيت تنتشر لتحوي وتعرض ضروباً من أصناف وسلع ما كان أحد من القرويين القدماء ليحلم برؤيتها في يوم من الأيام...
الذي يقصد القرية، لا بد له من رؤية عجوز جالس في ظل شجرة مجايلة له. ينظر إلى البعيد في تفكير تائه. فهو محكوم بحكم الطبيعة والقدر... ينتظر يومه بصبر وحزن... يتمنى لنفسه الرحيل كي يودع الدنيا بما تحمل من مادة وقيم وتكنولوجيا وإمكانيات تطور لا يفقه لها معنى! سلواه الوحيدة الكلام... الزمن قد حرمه نعمة السمع بعد أن وهنت قوى أذنيه... لذا، فهو "يحكي ولا يسمع"... السعادة لديه كل السعادة تكون حين يجد مستمعاً يصغي إليه. وحين شاهد العجائز مستمعة تحمل آلة تسجيل في يدها، أشرقت عيونهم بالبهجة! "وهل تنوين الاحتفاظ بصوتي؟" كان سؤالاً جماعياً! والإجابة بالإيجاب لاقت استحساناً كبيراً...
دارت الأحاديث فعرضت لنا تاريخاً اجتماعياً للقرية اللبنانية. قصصهم جاءت عفوية صادقة بعيدة كل البعد عن المواربة والتنميق. بكل بساطة تكلموا، فسردوا أخباراً متلاحقة على شاكلة ذكريات عالقة في عقولهم... والذكريات سُجِّلَت بأمانة بين دفتي هذا الكتاب. علك تلتقط منها عبرة أو عبر... فتكسب صداقة العجائز ووداهم؟!